غراميات فيكتور هوجو

تأليف

لطفي سلطان

تقديم ومراجعة

د. نبيل عبد الدايم

الكتاب: غراميات فيكتور هوجو

الكاتب: لطفي سلطان

تقديم ومراجعة: د. نبيل عبد الدايم

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

سلطان، لطفي

غراميات فيكتور هوجو / لطفي سلطان، تقديم ومراجعة: د. نبيل عبد الدايم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦– ٢٥ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع: ١٣٩٨٢ / ٢٠٢٠

غراميات فيكتور هوجو

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

وُلِدَ فيكتور هوجو فى ٢٦ فبراير ١٨٠٢، في بيزنسون بإقليم دوبس بشرق فرنسا، و هو الابن الثالث للجنرال "جوزيف هوجو"، الذي كان ضابطًا في جيش نابليون، أما الأم فهي "صوفيا تريبوشيه" التي كانت ابنة لضابط في البحرية، ولم تكن حياتهما الزوجية مستقرة، فقد واجها بعض المشكلات التي لم يستطيعا التغلب عليها فانفصلا رسميا، وكان فيكتور في السادسة عشرة من عمره، وكانت الأم قد سبق لها أن تركت إقليم دوبس وعادت إلى بيت أسرتها في باريس مصطحبة طفلها فيكتور وكان يومها في الثانية أخذته والدته للعيش معها في باريس، في حين كان والده يشارك في حروب الجيش الفرنسي، وقد أحب فيكتور باريس وكان يصفها دائما بقوله: "المكان الذي ولدت فيه روحي".

درس هوجو الأدب اللاتيني ثم درس الحقوق، وفي عام ١٨٢٢ نشر أول ديوان شعري بعنوان "أناشيد وقصائد متنوعة" والذي لقي ترحيبًا ومكافأة من الملك لويس الثامن عشر، وفي العام نفسه تزوج من صديقة طفولته أديل فوشيه؛ واستمر بعدها يكتب كتابات متنوعة بين النثر والشعر والدراما والمقالات السياسية، واشتهر ضمن من أطلقوا على أنفسهم "الكتّاب الرومانسيين".

وفي مارس عام ١٨٣١ نشر روايته "أحدب نوتردام"، التي أكد فيها موقفه المناهض لعقوبة الإعدام، وقد لاقت الرواية نجاحًا كبيرا على مستوى

العالم، ومنحت هوجو مكانة مهمة في تاريخ الأدب الفرنسي، وتعد هي و"البؤساء" أشهر روايات الأدب الفرنسي .. أما مجموعاته الشعرية: تأملات، أسطورة العصور، ومن مسرحياته ورواياته: مجنون كرومويل، من أوراق شجر الخريف، الملك يتسلى، الأصوات الداخلية، الأشعة والظلال، عمال البحر، أغاني الشعب والخشب، الرجل الذى يضحك والعام الرهيب، كذلك كان هوجو رساما متميزا لازالت لوحاته تعرض في المتاحف إلى اليوم.

وفي ديسمبر عام ١٨٥١، وبعد أن استولى لويس نابليون على السلطة في فرنسا ونصّب نفسه إمبراطورًا، شارك هوجو في حركة مناهضة له، ولكنها فشلت، فترك فرنسا مع عائلته وعاش في المنفى حتى عام ١٨٧٠؛ وأثناء إقامته في المنفى نشر أعمالًا أدبية كثيرة كان أشهرها "البؤساء"، والتي تتناول جوانب إنسانية بحتة تحدث فيها عن الحب، والحرب، والطفولة المفقودة، ليعود بعدها إلى فرنسا باعتباره أهم أدبائها.

وقد انتخب هوجو نائبًا عن العاصمة الفرنسية باريس في شهر فبراير من عام ١٨٧١، لكنه استقال في مارس بعد وفاة ابنه شارل، وأسس "جمعية الأدباء والفنانين العالمية" وأصبح رئيسًا فخريًا لها في عام ١٨٧٨، وفي الثاني والعشرين من مايو عام ١٨٨٥ توفي "هوجو" إثر مرض أصاب رئتيه، ودفن تحت قوس النصر، وتمّ تكريمُ ذكراه بوسائل عديدة، لعل من أبرزها وضع صورته على الفرنك الفرنسي.

ومن أهم أعماله التي تعددت طبعاتها وترجماتها ومعالجاتها للمسرح ثم السينما، رائعته "البؤساء"، وقد نشرها عام ١٨٦٢ وقت أن كان يعيش بالمنفي الذي لم يعد منه إلا بعد سقوط الديكتاتورية في ١٨٧٠، وفيها يتجلى الانحياز

الإنساني و الفلسفي عند "هوجو" من خلال ما قدمه من شخصيات مختلفة تضمنتها الرواية، فكل شخصية من شخصياتها قدمت رؤية معينه عن مواقفها اتجاه الحياة وفق منظور فلسفي، فالرواية التي استغرق هوجو في كتابتها اثني عشر سنه، تضمنت أحداث وقعت في فرنسا بعد الثورة، فهو يقدم تاريخ فرنسا و يتحدث عن الثورة الفرنسية ونابليون ومعركة واترلو، مسلطا الضوء على الثورة ورجالها وتاريخها ومسقطا عليها رأيه الشخصي في نابليون الثالث.

هوجو والمرأة

منح فيكتور هوجو المرأة في أدبه اهتمامًا كبيرًا، يدل على مكانتها الكبيرة في حياته، فكانت محركة لخياله، ولعل عشقه للمرأة هو الذي دفعه باتجاه الرومانسية. وقد زخرت قصائده ورواياته بآراء إيجابية عن المرأة، منها قوله:

"قد يكتب الرجل عن الحب كتابًا.. ومع ذلك لا يستطيع أن يعبر عنه، ولكن كلمة عن الحب من المرأة تكفي لذلك كله".

وفي أحد أعماله استنطق الشخصية بمقولات عدة تقارن بين الرجل والمرأة وتنتصر دائما للمرأة، منها قوله: "الرجل هو البحر، والمرأة هي البحيرة، فالبحر تزينه اللآلئ، والبحيرة تزينها مناظرها الشاعرية الجميلة، الرجل نسر يطير في الجو ويحكم كل ما تحته، أما المرأة فهي بلبل تغرد وعندما تغرد هذه المرأة تحكم القلوب، الرجل له مصباح هو الضمير، والمرأة لها نجم هو الأمل، الرجل ملتصق بالأرض، والمرأة دائمًا بالسماء".

وقد اعترف بوقوعه في الحب منذ صباه الباكر فقال في روايته "يوميات محكوم عليه بالإعدام": "هأنذا أرى نفسي مرة ثانية فتى حديث ألسن، تلميذًا في المدرسة، مرحًا، لعوبًا، أجري وأمزح ضاحكًا مع أخوتي في الممر الأخضر

الكبير بحديقة البيت الذي قضينا فيه أيام صبانا.. وكنت لا أزال صبيا، ولكن كانت تراودني الأحلام وتملأ الشهوة أعطافي، وكانت هناك إلى جواري فتاة واسعة العينين، غزيرة الشعر، سمراء البشرة، حمراء الشفتين، خداها بلون الورد... وكانت والدة كل منا تقول لنا: هيا، انطلقا وألعبا معا. فكنا نتنزه، ولكننا لا نلعب، فقد كنا نؤثر أن نتبادل الحديث. كنا من سن واحدة، ولكننا لم نكن من جنس واحد. ومع ذلك، فقد ظللنا مدة سنة أخرى ونحن رفيقان، بل لقد حاولنا غير مرة أن نعرف أينا أشد بأسا وأصلب عودا من صاحبه..

خطفت منها مرة أكبر تفاحة في البستان، وصفعتها على وجهها مرة أخرى حين رفضت أن تعطيني عش عصفور، فأخذت تبكي وتنتحب فقلت لها: حسنا.. فلنذهب إذن ونخبر والدتينا بالأمر، فتقولان لنا أن كلينا قد أخطأ، ولكن كل واحدة منهما تعتقد في قرارة نفسها أن ولدها كان على صواب".

ولم تكن حياة هوجو منفصلة عن أدبه، فلم يكن يكتب إلا ما يؤمن به، والموضوع الذي كان من أكبر هواجسه هو النساء الفقيرات، وكيف كان يفتك بهن.

أما عن حياته الشخصية فقد عاش هوجو الحب قبل أن يصل إلى العشرين من عمره، وكان حبه الأول لصديقة طفولته وابنة جيرانه آديل فوشيه التي أصبحت زوجته في عام ١٨١٩بعد وفاة والدته التي كانت عائقًا يحول دون زواجهما بسبب رفضها لها، لأنها تنحدر من طبقة فقيرة لا تليق بطبقة هوجو، وبعد أن أُدخِل أخوه أوجين مستشفى الأمراض العقلية الذي ظل نزيلا فيه حتى وفاته، لأنه كان مولعًا بِآديل أيضًا فأُصيب بالصرع جرّاء زواج هوجو منها حبيبة.

وكانت حياتهما الزوجية سعيدة، عاشا في البداية في بيت أهل آديل ثم انتقلا فيما بعد إلى بيتٍ مستقلٍ أنجبا فيه عددًا من الأطفال، إلى أنْ أصبحت المأساة عنوان حياتهما بعد وفاة جميع أولادهما.. وهنا وُلد ديوانه "أولادي" الذي غيّر عنوانه إلى "تأملات" وماتت فيما بعد زوجته التي مرضت عقب وفاة أولادها.

ولم يستطع هوجو تحمُّل الوحدة والكآبة خصوصا بعدما التقى في عام ١٨٣٣ بالممثلة الفرنسية جولييت درويه التي لعبت دورًا كبيرًا في حياته، فاستعاد هوجو العاشق بعد أن كان غارقًا في يأسه. وقد برهنت على تفانيها الكامل له رغم معاناتها من غيرته وحبّه للتملك، إذ كان يريدها أن تكرِّس كل حياتها له، وأنْ تنسخ كتاباته وتتحمّل طباعه المتقلّبة، وبالفعل تحملته ولازمته حتى وفاتها.

هذا الكتاب

الناقد والمترجم "لطفي سلطان" كان من أشد المعجبين بفيكتور هوجو، وكان من أوائل من قدموه للقارئ العربي، فترجم العديد من أعماله التي صدرت في القاهرة ما بين أربعينيات القرن العشرين وستينياته، ومنها "مذكرات محكوم عليه بالإعدام" التي نال عنها جائزة لجودة الترجمة، وللمترجم عدد من المقالات التي تناولت بالتحليل روايات وحياة فيكتور هوجو، أما أهم آثاره وهو الذي لم يسبقه إليه أحد، فيتمثل في كتابه " غراميات فيكتور هوجو"، الذي أصدره قبل أكثر من خمسة وستين عاما، وفيه – كما يقول – "سأحاول أن أقدم قصة حياة الشاعر العظيم وأبين تطوره الفكري والعاطفي، مع العناية بإبراز الأحداث التي كان لها أثر في إنتاجه الأدبي وفي حياته بوجه عام، وهي حياة تجاوزت في

جميع نواحيها كل الحدود المألوفة لبني الإنسان. وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى رجل كفيكتور هوجو لا يعتبر شخصًا عاديًا، وقد بلغت به مواهبه مرتبة العباقرة الأفذاذ".

وهو في كتابه الذي صدرت طبعته الأولى في القاهرة عام ١٩٥٣، يقدم سيرة حياة هوجو كاملة منذ مولده وحتى رحيله، ولم يقف فقط عند الجانب الغرامي من حياته، فغراميات هوجو ارتبطت بحياته وبأعماله الأدبية، بحيث شكلت العناصر الثلاثة معا جديلة لا يمكن فض عناصرها وتحليلها إلى عواملها الأولية، لاندماج حياته بأدبه وارتباط الاثنين بغرامياته، وهو الأمر الذي سيكتشفه القارئ بنفسه، فالكتاب يتحدث عن طفولة هوجو وصباه، ويتوقف عند مأساة نفيه، وكذلك أعماله المهمة وخصوصًا البؤساء، فضلا عن قصص غرامه المعروفة لقرائه ومؤرخيه.

د. نبيل عبد الدايم

مقدمة المؤلف

فيكتور هوجو، اسم ملأ القرن التاسع بأسره، وقد غطى أدبه كل مجالات النشاط الفكري فتناول الشعر والنثر، والرواية والمسرح، والأسطورة والتاريخ، وامتد فشمل حتى السياسة. وضرب في كل لون من ألوان هذا النشاط بسهم وافر، فلمع اسمه فيه وبقي إلى اليوم، على الرغم من كل شيء، محاطًا بهالة من المجد.

وفي هذا الكتاب، سأحاول أن أقدم قصة حياة الشاعر العظيم وأبين تطوره الفكري والعاطفي، مع العناية بإبراز الأحداث التي كان لها أثر في إنتاجه الأدبي وفي حياته بوجه عام، وهي حياة تجاوزت في جميع نواحيها كل الحدود المألوفة لبني الإنسان. وهذا أمر طبيعي بالنسبة إلى رجل كفيكتور هوجو لا يعتبر شخصًا عاديًا، وقد بلغت به مواهبه مرتبة العباقرة الأفذاذ.

وإذا كنت قد اتبعت في البحث منهجًا كهذا فإنما مرد ذلك إلى الرجل الذي اكتب عنه، فقد دعانا هو نفسه إلى إتباع هذا المنهج في عرض حياته وأدبه حين قال في قصيدة له:

إذا كانت أفكاري تخرج أحيانًا من صدري.
وتتفرق أغاني في العالم أجزاء أجزاء.
وإذا طاب لي أن أكتم الحب والألم.
في ثنايا رواية ساخرة هازئة.
وإذا كنت أهز المسرح هزًا بخيالي الخصب.
وأجعل رجالًا يعيشون معا مثلكم يتصادمون.

أمام أعين الصفوة من الجمهور.

فإنما أخاطب الشعوب بلغتي وصوتي.

والواقع أن من يقص حياة فيكتور هوجو، عليه أن يؤرخ للقرن التاسع عشر بأسره، فهو مرآة لهذا القرن، يساير نشاطه الفكري والأدبي تطوراته وأحداثه، وتتمشى روحه المرنة التي عكست كل الألوان مع المجتمع القلق الذي عاش فيه، ونزوات عصره المضطربة، ونظمه السياسية غير المستقرة.

ولم يتأثر أحد قط بالتيارات والمصادمات العنيفة التي هزت فرنسا منذ نيف ومائة عام، كما تأثر هذا الشاعر ذو الحساسية المرهفة، فقد أحس بكل رد فعل ناتج عن الأفكار التي قلبت الأوضاع في زمانه رأسًا على عقب، وعرف السلم والحرب، والنصر والهزيمة، والإقطاع والثورة، والملكية الارستقراطية والنظام الجمهوري، وتأثر بعدوى هذه النظم جميعا وبما لها من أسس وتقاليد، وتميزت حياته بسلسلة من المآسي ومن التجارب القاسية والأحداث الأليمة انعكست آثارها واضحة في تفكيره ومؤلفاته.

فمهمتي إذن ليست يسيرة. ولهذا، فقد رأيت أن أضيق دائرة البحث في ناحيتين لاشك في أنهما أعمق النواحي أثرًا في حياة هوجو: الناحية الغرامية، والناحية السياسية. وقد وجهت أكثر عنايتي إلى الناحية الأولى، فقد عاش الرجل عاشقا كل حياته.. وأما الثانية فقد رأيت من الخير– حتى لا يتشعب بنا البحث– أن أقتصر فيها على القدر الذي يمكن القارئ من أن يعيش مع هوجو في عصره، وأن يتابع مجرى الأحداث التي كانت ذات أثر حاسم في إنتاجه.. وأرجو أن أكون قد وفقت. والله ولي التوفيق.

لطفي سلطان

الطفل والفتى

لم تعرف زوجة الميجور "ليوبولد هوجو" أنها كانت تحمل بين أحشائها جنينا إلا في إحدى أمسيات شهر مايو عام ١٨٠١م على أعلى قمة في جبل الفوج أثناء سفرها من "ليونيفيل" إلى "بيزانسون". وفي الثامن والعشرين من فبراير عام ١٨٠٢، وضعت الزوجة في بيزانسون طفلا أسمته "فيكتور"، وكان الوليد من الضعف والهزال بحيث استقر في روع الوالدين والمشرف على الولادة أنه لن يعيش طويلا، ولكن الصغير قدر له أن يعيش بفضل عناية أمه.

وكان الجنرال هوجو وزوجته صوفي، على قدر كبير من الطيبة وكرم الخلق، ولكنهما لم يكونا دائمًا على وفاق، فعاشت الزوجة مع أولادها في باريس بينما كان زوجها القائد مشغولًا بمعاركه أثناء حروب نابليون. وقضى فيكتور أعوام طفولته مع شقيقه آبيل وأوجين في كنف أمه ببيت الأسرة في شارع "الفيانتين"، وهو منزل فخم له حديقة واسعة تركت في نفسه حتى آخر أيامه حنينًا دائمًا إلى مرتع طفولته، وما يراه فيه من شجر وطير.

وعهدت الأم بتربية ولدها الصغير إلى قسيس سابق يدعي "لاريفيير" كان قد خلع مسوح الرهبان ثم تزوج أيام الثورة الفرنسية، فلما أراد الرجل أن يعلمه القراءة والكتابة، أدهشه أن يعرف أنه قد تعلمها فعلا من تلقاء نفسه، فمضى به قدما إلى دروس اللغة اللاتينية، وسرعان ما أحبها الطفل وقد أعجبته عباراتها الدقيقة الموجزة.

وفي بداية عام ١٨١١، انتزع الصغير فيكتور وأخواه من مرتع طفولتهم

بشارع الفيانتين، إذ قررت السيدة صوفي هوجو أن تلحق بزوجها القائد في إسبانيا بناء على طلبه، وكان نابليون قد عين أخاه جوزيف بونابرت ملكًا لإسبانيا، فوقع اختيار هذا الأخير على الجنرال هوجو ليكون قائدًا فيها وحاكمًا لثلاث مقاطعات، فأقام القائد مع زوجته وأولاده بقصر "ماسيرانو" بمدريد.

وأحب فيكتور هذه البلاد بطبيعتها الخلابة ومناظرها المتنوعة. والواقع أن إقامته بها قد تركت في نفسه أثارًا لازمته مدى الحياة، فإليها يرجع ميله إلى جمال المرأة وافتتانه بسمات الجمال الإسباني بوجه خاص، كما أن "أشباحًا غامضة بلا اسم ستظل تسكر روحه منذ رحلته إلى إسبانيا لتصبح فيما بعد أشياء من لحم ودم في مسرحه الرومانتيكي".

وفي صيف عام ١٨١٤، غادر الجنرال ليوبولد هوجو وأسرته أسبانيا إثر زوال عهد الإمبراطورية، عائدا إلى باريس حيث الحق ولديه أوجين وفيكتور بالقسم الداخلي بمدرسة بشارع "سانت مارجريت"، وهو طريق ضيق معتم يقع بين سجن "لابى" وزقاق "دراجون".. فكانت تلك هي نهاية مرحلة الطفولة بالنسبة إلى فيكتور الذي كتب في سن الرابعة عشرة يقول: إنني أريد أن أكون شاتوبريان أو لا شيء!".

وأعلنت الأكاديمية الفرنسية عن مسابقة الشعر لعام ١٨١٦م، وكان موضوع المسابقة "السعادة التي تخلقها الدراسة في كل مواقف الحياة". فكتب فيكتور قصيدة مؤلفة من ثلاثمائة وأربعة وثلاثين بيتا، قدمها مع أحد أساتذته إلى سكرتارية الأكاديمية.

وبعد انقضاء أسابيع، كان فيكتور يلعب في فناء المدرسة حين رأى شقيقه آبيل مقبلا نحوه، وكان قد أصبح ضابطًا، وقال له: "لم تصدق الأكاديمية أنك

في الرابعة عشرة من عمرك، ولولا هذا لفزت بالجائزة الأولى!".

ولكن فيكتور ما لبث أن عوض الفرصة التي أفلتت منه بأن تقدم لمسابقة "أكاديمية الألعاب الزهرية في تولوز" ففاز بالزنبقة الذهبية وبجائزتين من أولى جوائزها على قصيدتين من قصائده، وتفوق بذلك على كثير من منافسيه من بينهم الشاعر المعروف "ألفونس دى لامارتين".

وفي أغسطس من عام ١٨١٨، غادر فيكتور مع شقيقه أوجين مدرسة "كورديه وديكوت" وقد غمرتهما فرحة بالغة، وأقاما مع والدتهما التي انتقلت في الشهر نفسه من بين شارع الفيانتين لتقيم في شقة بالدور الثالث بالمنزل رقم ١٨ بشارع "بيتي أوجيستان"؛ لأن المعاش الذي كان يتقاضاه زوجها المتقاعد لم يكن يسمح لها بأن تقيم مع أولادها في بيت له حديقة. وبانتقال أسرة هوجو إلى هذا السكن الجديد، بدأت صفحة رائعة في سجل حياة الفتى فيكتور.

أول حب

كان فيكتور هوجو لا يزال في السادسة عشرة حين بدأت الصحف تتحدث عنه. وكان ذلك بالطبع مدعاة لفخره، ولكنه لم يكن كل شيء.. فقد كانت هناك أيضًا فتاة نضرة كالزهرة تدعي "آديل فوشيه"، خمرية اللون، رقيقة الشفتين..

وكان يعرف آديل منذ أيام الطفولة، إذ كانت والدتها صديقة لوالدته، وكانت بين أسرتيهما صلة قديمة ترجع إلى ما قبل ميلادهما، وقد ظلت هذه الصلة قائمة على الرغم من الفارق الذي أصبح كبيرًا بين الجنرال هوجو والد فيكتور، ومسيو بيير فوشيه الكاتب الأول في إحدى المحاكم.

وهكذا نشأ أولاد الأسرتين معا، وكثيرًا ما كانت آديل تذهب مع شقيقها فوشيه عند "مدام هوجو" لتلعب وتضحك مع الأشقاء الثلاثة: آبيل، وأوجين، وفيكتور، ساعات طويلة في حديقة بيت الفيانتين، فكانوا يعاملونها بشيء من الاحتقار الذي يتسم به عادة سلوك الصبيان نحو فتاة من سنهم، وكانوا يعصبون عينيها بمنديل ويجعلونها تركب عربة البستاني ذات العجلات الثلاث، ثم يقولون لها: "عليك الآن أن تقولي أين أنت" وتعلو بعد ذلك ضحكاتهم وصيحاتهم!

وكانت آديل تشاركهم الضحك والصياح، ولكنها كانت تفضل أن تلعب وحدها مع الصغير فيكتور، وتوليه عناية خاصة، وكان فيكتور من ناحيته، يأنس إليها ويبادلها رقة برقة، واهتماما باهتمام. ثم أصبحت تبدو له بعد أعوام وكأنها

أميرة أسبانية، بشعرها الأسود الطويل، وبشرتها الخمرية المائلة إلى السمرة، وعينيها الواسعتين الصافيتين اللتين تبعثان في النفس الراحة والهدوء. لقد صارت البنت الصغيرة فتاة يافعة، وأصبحا الآن يتبادلان الحديث بدلا من أن يلعبا ألعاب الصغار، أو يقرآن معا ويقترب رأساهما يتابعان نفس السطور.. ومن حين لآخر، كانت تواتيه القوة ليجري خلفها، ويلحق بها أخيرًا وهو لاهث الأنفاس ولكنه منتصر مسرور، فيمسك بها من خصرها النحيل! ثم تذهب الفراشة الجميلة إلى أمها فتقول: "آه يا أماه! آه لو تعلمين كم جرينا!"

أما فيكتور فلم يكن يقول لأمه شيئا، ولكنه كان يشعر بأن الجنة كانت في قلبه..!

وقد أشار فيكتور هوجو إلى مولد حبه، فقال:

"هأنذا أرى نفسي مرة ثانية فتى حديث ألسن، تلميذًا في المدرسة، مرحًا، لعوبًا، أجري وأمزح ضاحكًا مع أخوتي في الممر الأخضر الكبير بحديقة البيت الذي قضينا فيه أيام صبانا.. وكنت لا أزال صبيا، ولكن كانت تراودني الأحلام وتملأ الشهوة أعطافي، وكانت هناك إلى جواري فتاة واسعة العينين، غزيرة الشعر، سمراء البشرة، حمراء الشفتين، خداها بلون الورد... وكانت والدة كل منا تقول لنا: هيا، انطلقا وألعبا معا. فكنا نتنزه.. ولكننا لا نلعب، فقد كنا نؤثر أن نتبادل الحديث. كنا من سن واحدة، ولكننا لم نكن من جنس واحد. ومع ذلك، فقد ظللنا مدة سنة أخرى ونحن رفيقان، بل لقد حاولنا غير مرة أن نعرف أينا أشد بأسا وأصلب عودا من صاحبه.. خطفت منها مرة أكبر تفاحة في البستان، وصفعتها على وجهها مرة أخرى حين رفضت أن تعطيني عش عصفور، فأخذت تبكي وتنتحب فقلت لها: حسنا.. فلنذهب إذن ونخبر والدتينا بالأمر، فتقولان لنا أن كلينا قد أخطأ، ولكن كل واحدة منهما تعتقد في

قرارة نفسها أن ولدها كان على صواب!

ولم ينقض وقت طويل، حتى صارت، إذا سرنا، تتكئ على ذراعي، فكنت أشعر حينئذ بفخر كبير ويتملكني شعور غريب، فكنا نمشي في رفق ونتحدث في رقة ولطف.. سقط منها منديلها ذات مرة، فالتقطته وقدمته لها، فمست يدي يدها وشعر كل منا بهزة، فأخذت تتحدث عن الطيور، والنجوم في الفضاء، وحمرة الشفق من وراء الأشجار، وعن زميلاتها في المدرسة، وثيابها.. تحدثنا حديثًا بريئًا في أمور عادية، ولكن وجنتي كل واحد منا كانتا متوردتين.. ذلك أن البنت الصغيرة كانت قد أصبحت فتاة شابة".

وفي أغسطس من عام ١٨١٨م، انتقلت أسرة هوجو إلى شقة بالطابق الثالث رقم ١٨ بشارع "بيتى أوجيستان" لتقيم إلى جوار بيت آل فوشيه ذي الحديقة.

وكانت "مدام هوجو" تذهب بعد العشاء لزيارة صديقتها مدام فوشيه، وكان ولداها أوجين وفيكتور يرافقانها في أكثر تلك الزيارات. ويقول بواب "أوتيل دي تولوز" أنه كان يرى الشابين الصغيرين مع والدتهما قادمين لزيارة أسرة فوشيه، وكادت هذه الزيارات أن تكون رتيبة كل ليلة من ليالي شتاء ١٨١٨–١٨١٩م وغالبًا ما كان الملل يسود جو تلك السهرات، فقد كان مسيو فوشيه رجلًا ضعيفًا معتل الصحة، فكان يأخذ كتبه وينتحي ركنًا خاصًا، مفضلا ألا تقلقه ثرثرة الحاضرين. وكانت مدام فوشيه وادعة هادئة الطبع لا تميل إلى الإفاضة في الحديث، وقد وضعت ذلك نصب عينيها ترفقا بزوجها وإراحة له. وكانت مدام هوجو نفسها تقطع ما هي عاكفة عليه من "أشغال الإبرة" بين حين وآخر لتأخذ قليلا من السعوط، وهو عمل كان مسيو فوشيه يشاركها فيه، وكانت الأم قد ربت ولديها على التزام الصمت في المجالس إلا إذا وجه إليهما

الكلام.

وكان القوم إذا ما فرغوا من العشاء، كلف الشقيقان بالذهاب إلى بيت آل فوشيه، فإذا تأخر أوجين استعجله شقيقه فيكتور، فإن حال بينه وبين الذهاب إلى بيت آديل حائل ما، غمرت الكآبة نفسها واسودت الدنيا أمام عينيه!

وعلى الرغم من جو الوقار الذي كان يسود تلك السهرات، فقد كان فيكتور لا يتمنى إلا أن يعود إليها، وذلك حتى يجد نفسه وجها لوجه أمام أميرة قلبه المتعطش إلى الحب ويطيل النظر في عينيها الحالمتين. وكانت آديل بدورها تتجاوز عن نظرات أوجين لتنظر خلسة إلى فيكتور، وقد ملأها الإعجاب بجبينه المرتفع، وشعره الذهبي، ونظرته البريئة الحانية، وصعوده السريع إلى النجاح.

وما لبث فيكتور أن وجد نفسه ذات يوم وحيدًا مع آديل، وهما جالسان جنبا إلى جنب تحت أشجار الكستناء، فباح كل منهما بحبه للآخر.

كان ذلك يوم ٢٦ ابريل عام ١٨١٩م، وكان فيكتور وقتئذ في السابعة عشرة من عمره، وكانت آديل في السادسة عشرة، وكانت الفتاة أكثر منه جرأة وأشد رغبة في الاستطلاع فأرادات أن تتبين معنى هذا الشعور الصامت الذي كان ينمو في صدرها وينبض به قلبها على الدوام، فقالت له يومئذ بعد أن تأملت وجهه طويلًا بنظرة فاحصة:

– لاشك في أنك تخفي بعض الأسرار.. أليس بينها سر يفوقها جميعا؟

فلما أجابها فيكتور موافقًا بعد لحظة صمت، صاحت تقوله له في انفعال:

– وأنا كذلك!

– آه يا أديل!

– أطلعني إذن على أهم أسرارك وأنا أفضي إليك بسري العظيم.

– حسنا.. أهم أسراري أنني أحبك.

فردت آديل قائلة في بساطة، وكأن كلامها صدى لكلامه.

– وسري العظيم هو أني أحبك..

وسرعان ما تحول الميل الحلو المعتدل إلى "شعلة" حب لا يمكن أن تنطفئ..!

وكان طبيعيًا أن يتبادل الحبيبان الرسائل بين حين وآخر، ولكنها كانت في أغلب الأحيان قصيرة فاترة، وعلى أية حال فهي لم تحفظ، ثم جاء الصيف وذهبت أسرة فوشيه للاصطياف في "أسى" بالقرب من باريس، وكان ذلك مصدرًا للأسى في نفس فيكتور. وقد حاول الفتى عبثا أن يقنع نفسه بأن الرحلة من بيته بباريس إلى "أسى" كالرحلة بينه وبين "أوتيل دي تولوز" ولكن الزيارات اليومية صارت متعذرة..

فلما جاء الخريف، رفعت أسرة فوشيه إلى بيتها في باريس، وكان الشوق قد برح بالفتى وملك عليه كل مشاعره، فطرح جانبا التردد والجبن وأصبح عاشقًا جريئًا، فصار يطلب من آديل أن توافيه في أماكن يعينها لها في مواعيد محددة، فكانت تستجيب لطلبه وتصطنع لتحقيق ذلك شيئًا من الحيلة، وكان لقاؤهما غالبا ما يتم في حديقة "الاوتيل دي تولوز" حيث تقيم أسرتها، فكانت آديل إذا ما غابت أمها تنسل للقاء فيكتور المتربص في انتظارها تحت أشجار الكستناء، وكانت تذهب أحيانًا أخرى إلى السوق بدلا منها فتسرع إلى لقاء حبيبها في أحد الشوارع الهادئة بعد أن تكون قد اشترت ما خرجت من أجله.

وكان فيكتور قد نشأ نشأة جادة، وكانت آديل من ناحيتها فتاة طيبة نقية

متدينة تحبه كفتاة بورجوازية بسيطة، وكان هو يحبها حبًا رومانتيكيًا عظيمًا، وكان كثيرًا ما يناديها قائلا:

– آديل.. يا ملاكي!

فكانت تجيبه قائلة:

– لا تعتقد أني ملاك، فأنا من هذا العالم..

ويسود الصمت بينهما لحظة، ثم تسأله فجأة:

– ترى هل سأفهم الشعر؟

فيجيبها قائلا في إصرار:

– الشعر يا آديل هو تعبير عن الفضيلة.

– وهل ستكون لي يا فيكتور على الدوام؟

– بكل تأكيد يا عزيزتي، فأنت الأولى والوحيدة.. وثقي أن سلطانك عظيم على نفسي، حتى أن صورتك وحدها أقوى من كل ما يضطرم في أعماقي..

– آه! لشد ما أحبك يا فيكتور!

ولما تحسنت صحة مسيو فوشيه، أصبح يسره استقبال أصدقائه في المساء، وكثيرًا ما كان بين الزائرين صديقات آديل وأصدقاؤها، فكان فيكتور يجتمع "بالفتاة ذات الجمال الإسباني" ويتحدث إليها، ولكن الاجتماع كان بالطبع قصيرًا يتم تحت أسماع الآخرين وأبصارهم، وكان الحديث بدوره مقتضبا، فكان لابد من إتمام ذلك عن طريق الكتابة.

وكان تبادل الرسائل قد بدأ من قبل ذلك بين الحبيبين، فكان كل منهما يضع في يد الآخر رسالة غرام. وقال لها فيكتور وقتئذ في رسالة إليها، بعد أن

ردت على إحدى رسائله: "بعد ردك علي يا آديل صارت عندي شجاعة الأسد".

ودام تبادل الرسائل بينهما ثلاث سنوات، وعلى الرغم من أن رسائل فيكتور هوجو التي كتبها إلى آديل في عام ١٨١٩ لم تحفظ، فالراجح أنها لا تختلف عن أكثر رسائله التي حفظت، وعلى أية حال ففي وسعنا أن نتبين من رسائله وهو في السابعة عشرة أنه كان يفكر تفكير الرجال، فهو واثق من نفسه، واثق من إخلاصه في حبه ومن شرف أغراضه، ولا يخامره أدنى شك في شجاعته وقيامه على عهد الوفاء، فإذا لم يكن هناك مفر من الانتظار فأنه ينتظر.. وأن اعترضت طريقهما العقبات، فإنه يتخطاها في ثبات وعزم، فهو لا يسلم بأن هناك شيئا مستحيلا، وهو يعتبر أن آديل زوجته، فنراه يوقع على أول رسالة منه إليها بكلمة: "زوجك" كما سيفعل ذلك على الدوام طيلة ثلاثة أعوام!

والواقع أن فيكتور لم يقبل قط في هذه الفترة من حياته تلك العلاقات التي تتميز بها عادة تصرفات الشباب بين سن الخامسة عشرة والعشرين، ولكي يحفظ الشاب طهارته فإنه تشبث بحبه العذري بكل قواه، وكان يرى في الزواج حفظا له ووقاية من كل سوء، وكانت آديل تبدو له المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تطرد عنه "الشياطين" وأن تكون له "حصنًا ضد جميع النساء الأخريات".

وكانت آديل لا تزال صبية، على الرغم من أنها كانت نقية فاضلة نبيلة الشعور ذكية الفؤاد.. كانت بريئة ورقيقة وحنونة، ولكنها كانت تستجيب لحبه الناضج بحب ساذج أقرب ما يكون إلى الطفولة، وكثيرًا ما كانت تتساءل: "ترى هل أستطيع أن ألعب دور الحبيبة الكبرى الذي يسنده إلي؟" وما المعنى الحقيقي لهذه الكلمات: "أنك ستنامين يوما بين ذراعي، وستكون لذاتنا هي واجباتنا

وحقوقنا؟".

وفي ديسمبر عام ١٨١٩م، كتب فيكتور قصيدة بعنوان "التنهدات الأولى" ألفها خصيصا لآديل ومطلعها: "دعي زوجك يأخذ منك اثنتي عشرة قبلة كما وعدته". فلما أهداها إليها وطالبها بإنجاز ما وعدت، ساومته وماطلت ولم تمنحه آخر الأمر إلا ثلاث قبلات! وكان بالقصيدة كثير من نغمات الحزن واليأس، ولكن ما كان أجملها في نظر الفتاة التي قرأتها مرارًا على انفراد وقد فاض كأس صباها بالغبطة والهناء.

ومع ذلك، فما لبثت القصائد والقبلات أن أصبحت مصدر قلق وانزعاج حين أفضت آديل بأمرها إلى إحدى صديقاتها فتحدثت هذه إلى بعض بنات الحي، وقالت لآديل:

- وهل تحبينه أنت؟

فأجابتها آديل في دهشة:

- وهل يسعني إلا أن أحبه؟

- وهل بحت له بحبك؟

- وكيف أستطيع أن أخفيه؟

- ولكنه لا يمكن أن يحترمك ما دمت لا تحترمين نفسك!

وخامر الشك نفس آديل وأخذت تسأل نفسها قائلة: "ترى هل يؤدي التسليم بالحب إلى فقد احترام الحبيب؟" ثم جمعت أمرها أخيرًا، وقالت له في ألم لما التقت به:

- قل لي يا فيكتور.. أصحيح أنك تحتقرني؟ هل يمكن أن تفعل ذلك؟

فأجابها قائلا في ذهول، وقد عصفت الدهشة بفؤاده:

-كيف يخطر ذلك ببالك يا ملاكي العزيز؟

وراح ينكر في قوة، ويجدد مخلصا عهد الوفاء، وسرعان ما انقشعت سحب الشك من نفس آديل، وعادت أوقات الصفاء.. ولكن الحبيبين اتفقا على عدم تبادل الحديث ألا إذا كانا على انفراد، وعلى أن يتظاهر كل منهما أمام الناس بأنه لا يعرف الآخر ولا يشعر حتى بوجوده!

ولما كان الفتى فيكتور مطبوعا بحكم نشأته- كما سبق أن ذكرنا- على الجد والحزم والطهر، فقد صمم على أن يعجل بالزواج منها مهما كلفه الأمر، ولكن.. أنى لمن كان في مثل سنه أن يظفر بالزواج؟ ومن ثم هداه تفكيره إلى حل يواجه به الموقف على طريقة "فرتر"، فيتزوج آديل ولو لليله واحدة ثم يتركها أرملة في هذا العالم، وقال في نفسه: "لخير لي أن أسعد بزواجها ليلة واحدة من أن أفقدها إلى الأبد ولن يستطيع أحد حينئذ أن يلومها أو يسئ إليها لأنها ستكون أرملتي".

وقال فيكتور لآديل وهو يقنعها بوجهة نظره:

– صدقيني يا حبيبتي.. إن يوما من السعادة يفضل عمرا كله آلام!

-كن عاقلا يا فيكتور، وعهدي بك دائمًا أنك ثابت رزين!

ورفضت آديل بالطبع أن تتبع فتى أحلامها في هذا الطريق.

وذات يوم، حدث ما كان لابد أن يحدث، فقد انحنت الفتاة الشابة لتلتقط شيئا على مرأى من والدتها، فسقطت من صدرها ورقة مطوية ما كادت "مداد فوشيه" تلقي عليها نظرة عاجلة حتى أحمر وجهها من الغضب، وأخذت تؤنب ابنتها في عنف، وتهددها بأن تشكو الفتى إلى "مدام هوجو".

ولم تخف آديل عن والدتها حقيقة العلاقة التي بينها وبين فيكتور، واعترفت لها بكل شيء. وتشاور مسيو فوشيه وزوجته طويلا في الأمر، فاستقر رأيهما أخيرًا على أن الشابين يجب أن يتزوج كل منهما الأخر أو يقطع علاقته به.

وفي اليوم السادس والعشرين من شهر إبريل عام ١٩٢٠، أي بعد عام تمامًا من اعتراف كل من فيكتور وآديل لصاحبه بحبه، ذهب الوالدان إلى بيت آل هوجو بشارع "بتي أوجيستان" في "مهمة خاصة"، فتوجس فيكتور خيفة من تلك الزيارة المفاجئة، إذ كان يعرف أمه حق المعرفة ويعرف مدى الطاعة والاحترام اللذين كانت تتطلبهما من أبنائها.

وذهلت السيدة صوفي هوجو حين علمت أن فيكتور يحب.. فيكتور الذي كان حتى الأمس القريب يتعلق بأذيالها! وفوق هذا، فمن ذا الذي يقول أن ابن "الجنرال هوجو" الفتى اللامع الذي كانت تتوقع له مستقبلًا مجيدًا، وتنتظر منه أن يكون "شاتوبريان" آخر، سوف يتزوج فتاة بلا مهر "دوطة"، ويفسد كل شيء من أجل ابنة "بيير فوشيه؟".

وصاحت مدام هوجو قائلة في غضب: "لن يتم الزواج مادمت على قيد الحياة" وكان وقع هذا القرار على نفس فيكتور كالصاعقة، فأغلق على نفسه باب غرفته وانخرط في بكاء مرير لم يسبق أن بكي مثله من قبل، ولكنه ما لبث أن استسلم آخر الأمر وكف عن رؤية آديل أو الكتابة إليها.

وكانت آديل تواجه هذه المشكلة وحدها دون أن تدري شيئا عما حدث، ولم يكن لها من أمل تتعلق به سوى آخر خطاب من فيكتور، وهو الذي قال فيه:

"أنهم لن يستطيعوا أن يفرقوا بيننا، فأنني لك إلى الأبد" ورأى فيكتور أن

يكون خطابه هذا خطابًا رسميًا، فوقع عليه باسمه الكامل خلافا لعادته.

ومنذ ذلك الحين انغمس في العمل، وأصبح هو المحرك الرئيسي لمجلة "المحافظة في الأدب" وحرر فيها مقالات كثيرة بأسماء مختلفة.

ومن الطريف أن فيكتور استطاع أن يتصل بآديل من جديد عن طريق المجلة، إذ نشر فيها قصيدة غرامية لم تكن في حقيقة الأمر إلا خطابًا مقنعًا إلى خطيبته، وبهذه الوسيلة استطاع أن يتسلل إلى بيتها، لأن "مسيو فوشيه" كان من قراء هذه المجلة.

وفي مرة أخرى نشر هو مقالا علق فيه على كتاب "في الإدارة" ألفه والد آديل، ثم أهداه بعد ذلك نسخة مجلدة تجليدًا فاخرًا من أول ديوان شعر له، فلم يكن أمام مسيو فوشيه هذه المرة إلا أن يكتب خطاب شكر لفيكتور. وزاد الرجل على ذلك، أن ذهب لزيارة السيدة صوفي هوجو لمجاملتها.

وهكذا بعد أن تحسنت الأمور، استطاع فيكتور أن يخاطب آديل في الشارع بعد عشرة أشهر من الفراق، ولم تهرب آديل منه...

يا لتصاريف الأقدارّ ففي اللحظة التي كانت فيها صوفي هوجو على وشك أن تكتشف عدم إطاعة ابنها لأوامرها، ماتت المرأة المسكينة أثر مرض قصير في السابع والعشرين من يونيو ١٨٢١.

وفي نفس الليلة التي دفنت فيها، كان فيكتور يحوم حول بيت آديل وحيدًا يعتصر قلبه الألم، وكانت الأضواء الساطعة تنفذ من خلال النوافذ، واستطاع فيكتور أن يرى مجموعة مرحة من الضيوف يرقصون، ومن بينهم آديل، تراقص شابا لا يعرفه وقد ارتدت ثوبا أبيض وزينت رأسها بأزهار حمراء! وتصلب قلب فيكتور حتى كاد يكف عن الحركة! أنه سوف يتذكر هذا المنظر الكئيب فيما

بعد مرات كثير..

وفي اليوم التالي، أفهمته آديل، وهي تبكي بين ذراعيه، أن الحفل لم يكن إلا للاحتفال بعيد ميلاد والدها.

ولكن هذا لم يكن معناه أن الطريق قد أصبح ممهدًا ليتزوج فيكتور من أديل، فقد كانت هناك عقبات كثيرة لا تزال قائمة، أولها أن فيكتور لا تتوفر فيه كل الشروط المطلوبة، ولذلك قرر مسيو فوشيه أن يسافر فورًا مع أسرته ليقضي الصيف في بلدة "درو" على مسافة أربعين كيلومترا من باريس، حتى لا يضطر إلى استقبال فيكتور في بيته.

وكان السفر إلى بلدة "درو" يكلف خمسة وعشرين فرنكا في عربة نقل المسافرين التي تجرها الجياد، ولما لم يكن فيكتور يملك في حوزته مثل هذا المبلغ، فقد قرر أن يقطع هذه المسافة سيرًا على الأقدام وبدأ رحلته في اليوم السادس والعشرين من يوليو أي في اليوم التالي لرحيل آل فوشيه، فوصل إلى "درو" بفضل قوته ونشاطه في ١٩ يوليو. ولما كانت "درو" بلدة صغيرة، فقد استطاع أن يعثر على السيد فوشبه وابنته. وأمام إصرار فيكتور ومثابرته، لم يملك الوالد إلا أن يستقبل– مع زوجته– الشاب الحزين، وحينئذ أخبره فيكتور برغبته في الزواج من ابنته، مؤيدًا طلبه بأنه قد استطاع أن يحصل على معاش من الملك، وكذلك على موافقة والده. والواقع أنه لم يكن قد حصل على شيء من هذا وذاك، وإنما كانت هي رغبته التي لا تقهر في أن يجعل آديل أسعد مخلوقة على وجه الأرض.

وقبل السيد فوشيه، بدون اقتناع كبير، أن تعقد خطوبة فيكتور على ابنته بصفة غير رسمية، ولكن العراقيل ما لبثت أن أخذت تسد عليه السبيل، فهو لم

يستطع أن يعتمد على أي عون مالي من والده الجنرال، الذي كان يقطن مدينة بلوا، والذي كان قد تزوج عشيقته بعد وفاة زوجته بشهر واحد.

وكان الوالد يرى أن مهنة الأدب لا يمكن أن تكفل لفيكتور أن يعول أسرة في يوم من الأيام، ومن ثم فيجب أن يعمل ابنه على أن تكون له وظيفة ما. أما فيكتور، فقد كان على العكس من والده مقتنعا بأن مستقبله ككاتب سوف يضمن له دخلًا كافيًا ومعونة من الملك في آن واحد.

ولكن كان عليه، حتى تتحقق هذه الآمال، أن يعيش في مسكنه الحقير بشارع دراجون ليعرف أقسى أنواع الفقر، وليعيش حياة طالب بائس يقضي يومه على رغيف من الخبز.

وكان فيكتور أثناء ذلك يريد حبيبته كاملة لا يشوبها نقص، ولا يمكن أن يوجه إليها أي نقد، فلم يقبل أن تتفوه بكلمة واحدة في غير موضعها، أو أن يرى زرًا واحدًا ناقصًا في ثوبها.. وإذا حدث وكانت تسير في يوم مطير أو طريق موحل، ورفعت ذيل ثوبها إلى أعلى أكثر مما يلزم، كتب إليها يقول:

"استمعي إلي يا آديل.. أنني أحب أن تكوني أقل خوفًا على ثوبك من أن يتسخ بالوحل، فالحياء أثمن عندي من أي ثوب...".

وكانت دروس الرسم التي تأخذها، تجرح مشاعره بما فيها من دراسة للأجسام العارية. وذات يوم جاء ذكر الخيانة الزوجية– أثناء مناقشة معها– وحينئذ عبر فيكتور عن رأيه بقوله: "في هذه الحالة، فأنني أما أن أقتل غريمي أو أن أقتل نفسي..."، فما كان من آديل حين سماعها ذلك إلا أن أحست بسعادة غامرة من أجل تشدده وغيرته اليقظة، ولكنها في الوقت نفسه أحست بالخوف منه!

وانقضى العام الثالث، منذ أن أعلن كل منهما حبه للآخر، وبدأ نجم فيكتور في الصعود بعد نشر ديوانه الأول، ولم يكف هذا النجم عن الصعود بعد ذلك أبدًا. وكانت آديل مصممة على الزواج منه، سواء وافق على ذلك الجنرال هوجو أم لم يوافق حتى ولو أدى الأمر إلى أن يختطفها فيكتور.. إذ أن هذه الفتاة الشابة المحافظة، قد أصبحت لا تقل حماسا عن حبيبها.

وأخيرًا حدثت المعجزة واستطاع فيكتور في ١٨ أغسطس عام ١٨٢٢ أن يحصل من الملك على معاش سنوي قدره ألف ومائتان من الفرنكات، فلم يعد بعد ذلك إلا أن يخطو خطوة يتقرب بها إلى والده فيعترف بزواجه من عشيقته، وبعدها يفوز بموافقته على الزواج من آديل..

ونفذ هوجو الخطة، ووصله خطاب من والده يوافق فيه على زواجه..

ولم تتسع الدنيا لفرحة الشاعر الشاب، فكتب إلى آديل يقول:

"عزيزتي آديل..

بعد أن أمضيت ليلتين سعيدتين، ليلة الأمس وليلة أمس الأول، هأنذا أقضي الليلة في البيت.. ولابد لي من أن أكتب إليك، وهل هناك ما يمكن أن أخفيه عنك أيتها الإنسانة الجديرة بالعبادة؟

آه، يا إلهي!.. لقد كنت أسائل نفسي كل دقيقة طيلة هذين اليومين: أحلم أم حقيقة ما أشعر به من سعادة؟ أنه ليخيل إلي يا عزيزتي أن ما أحسه ليس مما يتاح لبني البشر، ولست أستطيع أن أصور صفاء تلك السماء الحلوة التي أحيا فيها!

دعيني، يا عزيزتي، أطرح نفسي بكل تواضع عند قدميك.. فأنت عظيمة ورقيقة وقوية إلى أبعد حد، وقد كنت أظن أن أبعد حد يمكن أن يصل إليه

إخلاصي لك هو التضحية بحياتي.. ولكنك كنت، أيتها الحبيبة الكريمة، على استعداد للصبر والاحتمال والتضحية من أجلي. لقد كانت هذه الأيام الثمانية تبدو طويلة كالأبد، وكنت أحيانا على استعداد لأن أقبل عطايا حبك النبيل، وكنت أيضًا أنوي، في حالة ما إذا وضعني والدي في مأزق حرج، أن أجمع بعض المال، ثم أصطحبك إلى مكان بعيد، حتى نكون بمنأى عن أولئك الذين يريدون التفرقة بيني وبينك. وقد تخيلت أننا ربما نجتاز فرنسا، وقد أدعى اسميا أنني زوجك، ونذهب إلى بلد آخر نستطيع فيه أن نتمتع بحقوقنا، وكنت أحلم بأننا نسافر سويا في نفس العربة، وننام تحت نفس السقف!

ولكن، لا تعتقدي يا حبيبتي النبيلة، أني قد أستغل مثل هذه السعادة.. فلو حدث وسافرنا سويا فسوف تكونين موضع كل احترام وتقدير، لأنك يا آديل أسمى مخلوق احترمه، فكان من الممكن إذن أن تنامي معي في غرفة واحدة أثناء الطريق، دون أن تخافي أن أفزعك بلمسة واحدة، أو حتى بنظرة واحدة..

آديل! لا تكرهيني لأنني كنت تعسًا ضعيفًا، في حين كنت أنت قوية نبيلة.. فكري في حرماني ووحدتي، وفيما كنت أتوقعه من والدي.. فكري في أنني بقيت أسبوعا بأكمله أتوقع أنني سوف أفقدك.. وحينئذ لم يدهشك يأسي يا حبيبتي. والآن، ألا أكون على حق لو أنني أعتقدت أنني أتملق الملائكة إذا ما قارنت بينك وبينها؟ أن ميزتك هي أن الطبيعة قد وهبتك كل شيء: النبل والجلد والدموع. آه يا آديل! لا تظني أن كلماتي هذه تنبع من حب أعمى، فحبي لك يا عزيزتي سوف يظل طيلة عمري، بل وسيزداد نموًا يومًا بعد يوم، ولولا أنني أشعر بأن وجودي كله ملك يديك لفقدت حياتي سر الاتزان، ولكان الموت نهايتي المحتومة.

تلك كانت خواطري يا آديل لما وصلني الخطاب الذي يحمل بين طياته

الأمل.. وإذا كنت تشعرين نحوي بالحب، فلا شك في أنك سوف تقدرين مبلغ فرحي، ولن أحاول هنا أن أصف ما أعلم أنك سوف تشعرين به يا آديل.. أيتها المخلوقة العزيزة!

إنني لأتساءل: لماذا لا يوجد في قاموس اللغة كلمة أو كلمات أخرى غير كلمة الفرح؟ يا الهي! أيكون هذا لأن البيان الإنساني ليس من القوة ليعبر عن سعادتنا؟

هذه الوثبة المفاجئة من الحزن والاستسلام، إلى السعادة الغامرة، قد أوقعتني يا عزيزتي في دوامة من الاضطراب! وحتى هذه اللحظة، لا أزال فاقدًا زمام السيطرة على نفسي.. أنني أحيانًا أرتجف خشية أن أكون في حلم قدسي سأصحو منه فجأة! فهأنتذي يا عزيزتي قد أصبحت أخيرًا لي، وفي خلال بضعة أشهر، سوف تنامين بين ذراعي وتستيقظين بين ذراعي، بل وسوف تكون حياتك كلها بينهما أيضًا. أن جميع أفكارك في كل الأوقات ستكون ملكا لي، وكذا كل أفكاري وأوقاتي ستكون ملكا لك يا آديل.. أنك الآن يا عزيزتي على وشك أن تنتسبي إلي، فكأن هذه دعوة لي لأتذوق السعادة السماوية وأنا لا أزال على الأرض.. أنني أتصورك كزوجة صغيرة لي، ثم كأم شابة، ولكنك دوما ستكونين بالنسبة إلي شيئًا واحدًا: آديل المعبودة الرقيقة.. آديل التي سوف تبقى في طهارة الحياة الزوجية، تماما كما كانت عند بداية حبها العذري.

وداعا يا ملاكي العزيز، وداعا يا آديل الحبيبة.. دعيني الآن أقبل خصلة شعرك التي أحتفظ بها على الدوام، ثم أذهب إلى فراشي.. حقا أنني لا أزال بعيدًا عنك، ولكنني أستطيع أن أراك في أحلامي.. وداعا يا حبيبتي، وكوني على يقين من أن زوجك سوف يكون شغله الشاغل أن يعبدك طيلة هذه الحياة، والحياة الأخرى".

وتقرر أن يعقد القران في ١٢ أكتوبر عام ١٨٢٢.

وفي اليوم المحدد، وقف هوجو بين شاهدي زواجه "الفريد دوفينى" و"دوق دي روهان"، وها هو ذا يصيح أخيرًا زوجًا لحبيبة قلبي آديل. وأقيم لهذه المناسبة حفل راقص ببيت "مسيو بيير فوشيه"، وفي هذه المرة كان فيكتور هو الذي يرقص مع آديل بقلب تغمره السعادة ويطير به الهناء.

الأسرة المقدسة

مـرت الأيام بالـزوجين الشـابين هانئـة وادعـة في شـقتهما الصـغيرة الـتي استأجرها هوجو بشارع "فوجيرار" ولكن لم تكد تنقضي أيام على ليلة الزفاف حتى ساءت حال "أوجين" شقيق فيكتور، إذ كان المسكين يهيم حبا هو الآخر بآديل فوشيه التي صارت الآن زوجة أخيه، ولم تمض أسابيع حتى اقتضى الأمر إيداعه بأحد مستشفيات الأمراض العقلية!

وكانت الفترة فيما بين عامي ١٨٢٢ و١٨٣٠ فترة سعادة بمعنى الكلمة، نعم بها "الملاك فيكتور" و"امرأة الجنة في الأرض" كما كان يسميهما أصدقاؤهما "ألكسندر دوماس" و"ألفريد دوفيني" و"لامرتين" وغيرهم من الشعراء والأدباء الذين كانوا يترددون بين حين وآخر على بيت الشاعر الشاب لمناقشة مسائل الشعر والأدب والنقد، والذين كانوا يطلقون عليهما اسم "الأسرة المقدسة".

وفي هذا المسكن الصغير الذي، شهد أعوامًا ثمانية من السعادة الزوجية، ولدت آديل لفيكتور هوجو طفلة هي أولى أولادهما- في ٢٨ أغسطس من عام ١٨٢٤- فسمياها "ليوبولجين" وأطلقا عليها تدليلًا اسم "ديدين".

وذات يوم من أيام عام ١٨٣٠، هبت رياح غير مواتية عصفت بثمانية أعوام من السعادة والوئام!

ففي ذلك اليوم، دخل حياة أسرة فيكتور هوجو الهانئة شاب خجول، ضعيف البنية، أحمر الشعر، لا يتمتع بشيء من الوسامة يدعى "سانت بوف" الناقد العبقري والكاتب الشهير.. وكان سانت بوف قد نشر مقالا في مجلة

"لوجلوب" أثنى فيه ثناء عاطرًا على فيكتور هوجو وموهبته الشعرية، وما لبث أن أصبح أكبر المدافعين عنه.

لوم يكن هوجو يعرفه من قبل، وسره أن يعرف أن الناقد الكبير يقيم على قيد خطوات من بيته بشارع "فوجيرار"، فدعاه هوجو إلى منزله، وسرعان ما أصبح سانت بوف من أصدق أصدقائه..

في ذلك الوقت كانت الظروف كلها تمهد لخيانة آديل لزوجها، أنها كانت قد أخبرته بعد ولادة أربعة أطفال أنها قد تعبت من الأمومة، ليس هذا فحسب وإنما ملت انكباب زوجها عليها بطريقة غير عادية، وأصبحت تشعر بأنها تتحمل قبلاته أكثر مما كانت تتجاوب معها، وكان فيكتور حينئذ يقول لها: "حبيبتي آديل: أليست قبلاتي كريهة إلى نفسك؟ آه! إنني أتوسل إليك إن كنت تحبينني أن تتنازلي وتتجاوبي مع مداعبات زوجك".

إنها الآن، قد أصبحت سيدة شابة ذات غرائز هادئة، تشعر بأن فيكتور ليس رجلها الذي كانت تحلم به، فهو يخضع حياته كلها لمجده، ومن ثم فقد رسخ في ذهنها أنه لا يهتم بها.. وباختصار، أصبح من الصعب على آديل أن تلعب دور زوجة الرجل العبقري، أنها هي نفسها في حاجة إلى الاهتمام والإطراء، وها هي ذي تجد في هذا الشاب الرقيق الساحر الحديث من يحقق لها تلك الرغبة.

كان سانت بوف يتردد على بيت هوجو كل يوم تقريبًا، ويجلس أوقاتًا طويلة مع آديل، التي كان زوجها الشاعر يظل طيلة الوقت في الخارج ليرتب أمر الحفلة الافتتاحية التي ستعرض فيها مسرحية لوكريس بورجيا على مسرح "التياتر فرانسيه".

وحدث ما كان متوقعًا، فقد أحبت آديل الناقد الشهير الذي يهتم بها ويطري جمالها وأنوثتها بأسلوب هادئ رزين.. فتلامست أيديهما، ثم تقابلت شفاههما، وسرعان ما عرفت باريس كلها شقاء الشاعر!

ثم حدث ما هو أكثر من ذلك، فإن آديل التي كتبت فيما مضى تقول لفيكتور: "لم يبق سوى ثلاثة أشهر وأكون إلى جوارك دائمًا"، تكتب إليه لتطرده من حياتها:

"إنني لم أفكر في أن تكون حرًا وتصبح كمن لم يتزوج".

ودون هوجو في مفكرته هذه الكلمات التي تقطع نياط القلوب:

"انظر إلى هذه المرأة! أنها لا تحبك، وهي في الوقت نفسه لا تكرهك! أنها لا تحبك، وهذا هو كل شيء!"

إن حب آديل الكبير قد تضعضع وأصبح على وشك أن يخمد، وأصبح الشاعر الآن بدافع من يأسه البالغ عرضة لأن يندفع في أول مغامرة عاطفية أو جسدية تعوض له هذه الخيانة القاسية أو توازنها، وسرعان ما أقبلت هذه المغامرة.

لقاء في مسرح

ذات ليلة كان فيكتور هوجو في مسرح "التياتر فرانسيه" ليستمع إلى الممثلين، وهم يقرؤون أدوارهم في مسرحية "لوكريس بورجيا" أثناء البروفات التي تجرى على هذه المسرحية استعدادًا للحفل الافتتاحي، وكان من بين الممثلات، ممثلة فاتنة تدعى "جولييت درоويه" قبلت عن طيب خاطر أن تمثل دورًا صغيرًا في هذه المسرحية، هو دور الأميرة "نجروني". ولم يكن هوجو يعرفها، ولكن سبق له أن رآها من بعيد في حفل راقص ذات ليلة من ليالي شهر مايو عام ١٨٣٢.

وكانت جولييت فتاة بيضاء، في السادسة والعشرين، ذات عينين سوداوين، وقوام فارع، وجمال كان يعد أروع وألمع جمال في باريس، حتى أن هوجو نفسه لم يجرؤ أن يخاطبها في تلك الليلة.. أما الآن، فها هي ذي أثناء القراءة ترفع إليه بين حين وآخر نظرات فيها استلطاف واستسلام، كان لها وقع السحر في قلبه الخالي الحزين.. فأخذ يكثر من الحديث عنها، ولما سأل عنها عرف الكثير.

ولدت جولييت في بلدة فورجير عام ١٨٠٦، وكان أبوها يعمل حائكًا للثياب، ومات عنها والداها وهي لم تزل طفلة في المهد، فعهد بالطفلة اليتيمة إلى خال لها يدعى الملازم رينييه دروويه كان يعمل ضابطًا بمدفعية السواحل في مقاطعة بريتاني، وكان هذا سببًا في أن تكون طفولتها قاسية ممزقة من كل النواحي.

وحين بلغت جولييت العاشرة، ألحقها خالها دروويه بالقسم الداخلي من دير خاص بإحدى الطوائف الدينية.. وهناك سرعان ما فازت بحب الراهبات جميعا،

ونالت من عطفهن وتدليلهن الشيء الكثير، ولكنها كانت مع ذلك فتاة لطيفة وادعة حسنة التربية إلى حد يثير الإعجاب. وهناك أيضًا خاطرت بأن تنطق بأمنيات ودعوات تنطوي على عدم الحذر وقلة المبالاة، دون أن يتدخل في ذلك أسقف باريس الذي لاحظ تلك المخلوقة الجميلة ذات يوم أثناء زيارته للدير، فاقتنع بعد أن ناقشها وألقى عليها بضعة أسئلة بأن الحياة وراء جدران الأديرة لا تلاءم طبيعة هذه الفتاة، فأطلق سراحها..

وزج بها جمالها الفريد وجسمها البديع كامل التكوين في عالم الفن، فعملت في عام ١٨٢٥م- وكانت حينئذ في التاسعة عشرة- كموديل عند الفنان جيمس براديه، وهو نحات كان في السادسة والثلاثين من عمره حينما تعرف إلى جولييت.

وكان براديه إنسانًا مشغوفًا بالنساء، ولكنه كان خفيف الظل لا يميل إلى القسوة، وعملت جولييت عنده فترة من الوقت، وقد رسمها وهي عارية، وحملت منه، سفاحًا، طفلة اسمتها "كلير" ولكنه لم يعترف بها أو ينكرها.

وفي عام ١٨٢٦ التحقت جولييت بمعهد التمثيل، وأخذت تحلم بزواج برجوازي، وكان براديه قد دفع بها نحو المسرح، وأخذ يزودها بنصائحه الذكية في هذا المجال. ومثلت جولييت بنجاح أدوارًا ثانوية في بروكسيل، ثم في باريس، ولكن نجاحها كان يرجع إلى جمالها أكثر مما يرجع إلى مواهبها، إذ كانت ممثلة يعوزها الأعداد.

وكثيرًا ما كانت جولييت تبكي خشية ألا تصل إلى قمة النجاح الذي كانت تنشده، وكانت تكتب إلى براديه لتفضي إليه بمخاوفها، فكان يرد عليها قائلا: "عليك أن تتغلبي على الظروف! واحرصي على أن تكوني محبوبة من الناس

ولاسيما الممثلات، فهن في كل البلاد شيطانات مريدات..!" وكان برادييه يوقع خطاباته لها بالصديق، والعشيق، والوالد المخلص!

وكانت جولييت قد أعطت نفسها لعشاق كثيرين، من بينهم رجل إيطالي صفيق في الثالثة والخمسين من عمره يدعى بارتو لوميوبنللى، ورسام مناظر مفلس يدعى شارل سيشان، وكاتب صحفي جرئ يدعى ألفونس كارل، ثم إلى أمير ثري عاطل اسمه أناتول ديميدوف أثث لها في عام ١٨٣٣ شقة فاخرة في باريس.

وعلى الرغم من تلك الحياة العاهرة التي عاشتها جولييت، ألا أنها كانت تحتفظ في شعورها بنضارة حقيقية وميل إلى الأحلام، وحب كبير لأبنتها، ونظرات جميلة ساحرة "نفيض أحيانًا بمرح سماوي وسحر أخاذ".

وفيما بعد، سيكتب هوجو في مفكرة جولييت: "في اليوم الذي التقت فيه نظرتك بنظرتي لأول مرة، انبعث شعاع من قلبك إلى قلبي كما يطلع ضوء القمر على الخرائب".

والواقع أن كلا منهما يجد نفسه دون أن يدري أمام إنسان مصدوم محطم، فقد كان هوجو بسبب فقدانه لآديل في حاجة لأن يستعيد بالحب ثقته في نفسه، أما جولييت التي لم تعرف سوى اللذة الحسية فكانت تريد منذ أن كانت في السادسة عشرة أن تصبح "رفيقة محبة لرجل شريف".

وأخذت جولييت، أثناء بروفات مسرحية لوكريس بورجيا، تضاعف من دلالها وإثارتها لهوجو الذي كان يتخذ موقف المدافع عن نفسه، فقد كان مركزه ومنزلة أسرته وأولاده يحتمان عليه أن يتخذ هذا الموقف.

لقد كان الشاعر يخشى الممثلات "ومضايقات الكواليس" ولهذا كان موقفه

يتسم بالحذر والوقار.

إن استقبال الجمهور لمسرحية "الملك يلهو" بالصفير، جعله يرتب الحفل الافتتاحي لمسرحية لوكريس بورجيا بدقة كبيرة تليق بضابط عظيم، فجاء العرض نصرًا رائعًا. أما جولييت فقد سحرت لب الجمهور على الرغم من قصر دورها، وكتب هوجو يقول مسجلًا رأيه فيها بسرور: "يا للجمال والروعة، ويا للقامة الساحرة والكتفين البديعتين..! أنها مجموعة من التعبيرات المتقنة والانفعالات العميقة، وستصبح ممثلتنا الأولى في هذا النوع من المسرحيات بعد عام واحد من التدريب!".

غير أن هوجو كان مخطئًا، لا بالنسبة لجمالها وإنما بالنسبة إلى مواهبها، فقد كانت جولييت ممثلة غير حاذقة بسبب تكلفها الكبير، ولكن.. هل يصدر الحب أحكامًا عادلة؟

لقد كان هوجو يحبها، وكان يذهب الليلة تلو الليلة إلى مسرح سان مارتان ليستمتع خلال فصل من فصول مسرحيته بوميض هاتين العينين الجميلتين المتطلعتين إليه على الدوام!

لقد كان الإغراء ينهش قلبه.. فآديل، كانت ترفض في إصرار أن تعطي إليه نفسها منذ زمن طويل، وعلى الرغم من انتصاره الظاهري، كان الشاعر يطوي جناحيه على ألم دفين.

وكان هوجو يزور جولييت كل ليلة في غرفتها الخاصة بالمسرح ليزودها بنصائحه، فتشمل نفسه من كل هذا الجمال الذي يعرض نفسه عليه. ولم تكد تنقضي على ليلة افتتاح مسرحية لوكريس بورجيا أربعة أيام، حتى كان يقول لها: "أحبك!"، وكان هذا ما تنتظره جولييت وتتمناه.

وفي ليلة السبت السابع عشر من فبراير– وقد ظل هوجو وجولييت طيلة حياتهما يعتقدان مخطئين أن ذلك كان يوم ثلاثاء– في تلك الليلة، توجه الكاتب والممثلة بعد عرض لوكريس بورجيا إلى حفل راقص كان يقام في المسرح، وقررا أن يقضيا هذه الليلة عند جولييت في مسكنها بشارع سان دنيس، وذلك حتى يتم إعداد "عش غرامهما" في شارع ليشيكييه. وكتبت جولييت إلى هوجو تقول:

"أحضر إلي الليلة لتأخذني من عند مدام كرافت يا "مسيو هوجو". . إن حبي لك سيمنحني الصبر حتى هذه اللحظة، فإلى اللقاء في هذه المساء.. آه! يا له من مساء سيكون حافلا بكل شيء.. أنني سأهبك نفسي بأكملها.."

وبعد ذلك بثمانية أعوام، كتب هوجو مذكرًا إياها بذلك اليوم فقال:

"هل تذكرين ليلتنا الأولى يا حبيبتي؟ لقد كانت ليلة كرنفال، وكان اليوم هو الثلاثاء من فبراير عام ١٨٣٣م. ولازالت اذكر أن مسرحا ما كان يقيم حفلًا راقصًا، وذهبنا معا إلى هناك.. أن ذكرى هذه الليلة لن تنمحي أبد من ذاكرتي، وكل ساعاتها تمر أمام مخيلتي في هذه اللحظة الوحدة تلو الأخرى.. لقد كان من الضروري أن تذهبي إلى ذلك الحفل الراقص، ولكنك لم تفعلي وآثرت أن تنتظريني.. يا للملاك المسكين! كم أنت محبة جميلة.. لقد كان الهدوء الحلو يشمل جو غرفتك الصغيرة، وكانت ضوضاء باريس وهي تغني وتضحك تتناهى إلى أسماعنا من الخارج، وفي وسط هذا الاحتفال الكبير كنا قد أخفينا احتفالنا في الظلال.. لقد كانت نشوة باريس زائفة، أما نشوتنا فكانت هي النشوة بمعنى الكلمة!

يا ملاكي العزيز.. لا تدعي هذه الساعة العجيبة تنمحي أبدًا من ذاكرتك،

فهي التي غيرت مجرى حياتك.. لقد كانت هذه الليلة، ليلة السابع عشر من فبراير عام ١٨٣٣ مقدمة ورمزًا للشيء المجيد الكبير الذي كان على وشك أن يتم في نفسك. لقد تركت في تلك الليلة كل الضوضاء الزائفة بعيدًا في الخارج، وأتيت لتدخلي في الوحدة والحب..!"

لقد كان هوجو منتشيا، فآديل التي كان يشتهيها كثيرًا فيما مضى لم تنجح في أن تمنحه سوى نوعا من الهدوء الممتزج بالخوف: هدوء الزوجات الشابات.. وفجأة، أصبحت له حبيبة نادرة الجمال:

"إن عينيها الصافيتين كاللؤلؤ، وجبينها الباسم الوضاء، ورقبتها، وذراعيها، وكتفيها، كل ذلك له روعة وكمال التماثيل القيمة. أن جولييت، تستطيع بحق أن تكون مصدر الهام للمثالين.. أنها يمكن أن تتفوق على فتيات أثينا الشابات في مسابقات الجمال التي كن يخلعن فيها غلالتهن أمام براكسيتيليس، وهو يعمل في تمثال فينوس..

وفي تلك الليلة منحت جولييت نفسها لرجل في الثلاثين من عمره لم ينم إلا على فراش الزوجية، رجل موهوب يعرف كيف يتذوق اللذة ويمنحها في آن واحد.. أن مداعبات الحب فن كالشعر، وكانت جولييت رائعة في هذا الفن!

وكان الحديث مع جولييت له سحر آخر، فقد كان هناك الكثير مما يمكن أن تحدثه عنه: إقليم بريتاني حيث ولدت، وفترة التلمذة في مدرسة الراهبات، والبؤس والشقاء.. وكان بدوره لديه الكثير الذي تسمعه منه..

وكانت جولييت تشبع فضول الكاتب بما ترويه له من أقاصيص كثيرة عن حياتها الشاقة الحافلة بالمغامرات، وكانت تقول له في لهجة تشيع في نبرتها رنة فخر: "أنني من الشعب" وكان "البارون هوجو" رغم ما فيه من غرور ساذج

لكونه من سلالة نبيلة، يتوق إلى معرفة الشعب.. وفضلا عن ذلك، فالشاعر في حاجة دائمًا لأن يفهم، وقد تلقت جولييت قصائده من أجلها في سرور يفوق سرور آديل بكثير، فهذا الزوجة الخاملة لم يكن يبدو أنها مهتمة بمخطوطات زوجها ومسوداته. أما جولييت التي تهوي بطبيعتها جمع التحف والآثار الأدبية، فأنها تحتفظ بكل شيء وفي ولاء وتقديس. أنها تعطي للمجد طعما، والمجد وحده عذب المذاق، ولهذا فهي جديرة حقا بإهداءاته الجميلة..

لقد كان هذا الحب بالنسبة إليه بمثابة عودة الروح بعد عام من الذل والهوان، وكان قضاء الليالي مع عشيقته بعيدًا عن بيته أمرًا يسبب له الخوف، ولكنه سرعان ما أصبح بالنسبة له مدعاة للفخر.

وكان يحدث كل الناس عن غزوته تلك، حتى سانت بوف الذي كان يهز كتفيه ويعقب قائلا وهو يضحك:

"إن هوجو يبوح لي بسره، وكأنه رجل ليس له من عيب ألا حبه للنساء أكثر من اللازم. أنه يدعي أنه لا يفكر في مجده على الإطلاق، أن نفوسنا تنطوي دائمًا على عيبين اثنين.. العيب الذي نعترف به وذلك الذي نخفيه..".

وكانت باريس كلها تتحدث بالطبع عن مغامرة الشاعر، وكان هناك أصدقاء مخلصون من أمثال فيكتور بافي كانوا يحسون بالقلق، ولكن هوجو كان يريد أن يعتقد أن هذه السعادة لا يمكن أن تكون سعادة آثمة. كتب هوجو إلى فيكتور بافي يقول:

"إنني لم أخطئ قط في حياتي مثلما أخطأت هذا العام، ولكنني لم أكن أبدًا سعيدًا أكثر مما أنا الآن. أنني الآن أساوي أكثر مما كنت وأنا برئ، الأمر الذي تشعر له أنت بالأسف. حقا أنني كنت فيما مضى إنسانًا بريئًا ولكنني الآن

شخص متسامح، فلي صديقة عزيزة طيبة، وهي ملاك احترمه تماما مثلما تحترمه أنت، أنها تعرف ذلك ولكنها تحبني وتغفر لي".

وكانت آديل هي ملاك الغفران الذي يتحدث عنه، والواقع أن تمثيل دور الملاك كان أمرًا سهلًا بالنسبة إليها. وكيف تستطيع أن تطالبه بعدم الخيانة وهي التي لم تعد تريد أن تكون زوجته؟ ومن ناحية أخرى، كانت الحياة العائلية مستمرة بينهما..

وسافرت آديل فوشيه زوجة هوجو إلى المصيف، وكان هوجو أثناء ذلك في باريس يصحب جولييت إلى شقة ميدان رويال، وفي اليوم التالي كتبت إليه جولييت تقول:

"كم كان لطيفًا أن تفتح لي باب بيتك وتجعلني أرى ذلك المكان الذي تعيش وتحب وتفكر فيه. لقد كان ذلك بالنسبة إلي أكثر من مجرد إشباع الفضول، وإنني لأشكرك على ذلك.. وحتى أكون صريحة معك أيها المعبود العزيز، فاسمح لي أن أخبرك بأنني قد خرجت من هذه الزيارة وأنا أشعر بحزن مريع ويأس قاتل! لقد أحسست أكثر من أي وقت مضى بمدى انفصالي عنك. ولكن ذلك ليس خطأك، ولا هو خطئي كذلك، يا حبيبي المسكين.. أن الأمور هي التي تسير هكذا، وليس من المعقول أن أنسب إليك قدرًا من شقائي أكثر مما تستحق. ومع ذلك، فليس قس وسعي أن أدعي أنني أتعس النساء.

فإذا كنت تشعر نحوي ببعض الشفقة، فإنك حتما ستساعدني على الخروج من هذا المأزق المذل الذي يعذب نفسي وجسدي في وقت واحد.. أنني أتوسل إليك أيها الملاك الطيب أن تساعدني على النهوض، فذلك يجعلني أثق فيك وفي المستقبل..".

يا له من تواضع مخلص لا تنقصه الصراحة! إن مأساة جولييت كانت أنها قد أصبحت فيما مضى عاهرة بكل "براءة" ولما لم تجد جولييت من الرجال سوى العنف والوقاحة، كان طبيعيًا أن تطلب من الأمير ديميدوف وأمثاله أن يوفروا لها على الأقل حياة مترفة.

والآن، ها هي ذي تحب سيدًا يطلب منها الكثير، سيدًا يكره كل ما هو حقير، ولا يقبل التقسيم لأنه قاسي الأمرين من الغيرة حتى أصبح لا يقبل ألا كل ما هو ثقة أكيد. لقد كان يحبها حبًا كاملًا خالدًا عميقًا حنونًا لا حد له، ولذا كان يريدها كاملة نقية جميلة..

تجربة قاسية

لم يكن لدى جولييت وسيلة تعيش منها سوى أولئك الأشخاص الأثرياء الذين كانوا يحمونها، لقد كان دخلها من المسرح ضئيلًا للغاية، وفضلا عن ذلك فقد كانت متكفلة بابنتها كلير، ولهذا كانت مترددة في أن تقلب حياتها رأسا على عقب.

وكان هوجو قد جعلها تقيم في مسكنها الجديد الجميل في شارع دي ليشيكييه، وكانت لا تزال تستقبل في ذلك المسكن الأمير ديميدوف صاحب الهدايا الفاخرة، وكذلك كل أصدقائه، ولذا كان هوجو كثيرًا ما ينعتها بأنها فتاة ضائعة.

إن شخصًا مثل بلزاك لو كان في مكانه لابتسم، أما هوجو فكان يعيش هنا إحدى مآسي حياته الكبرى. وكانت جولييت تشعر أحيانًا بالألم من جراء شكوكه حتى أنها تمنت لو تقطع علاقتها به وتولى هاربة، ولكنها كانت تعود طالبة الصفح من هذا العشيق المدهش والقاضي الرهيب راجية إياه أن يحيى ما تبقى في نفسها من فضيلة وطيبة.

وكان هوجو على استعداد للصفح، إذا وافقت جولييت على أن تقطع كل علاقة لها بماضيها. ووافقت جولييت أخيرًا على ذلك، فوجدت نفسها فجأة وقد غمرتها الديون. وفي يناير من عام ١٨٣٤ رهنت: "٤٨ قميصا من الباتستا المشغولة– ٣٥ قميصا من الباتستا– ٢٥ فستانا – ٣١ جونلة مشغولة – ١٢بلوزة مشغولة – ٢٣ برنصا وروب دي شامبر من الكاشمير

المقلم– شال كشمير من الهند، وأشياء كثيرة غير ذلك...".

وأحاط الدائنون بجولييت من كل جانب، وزادت زيارتهم لها من غيرة هوجو، وحينما اضطرت في النهاية لأن تعترف له بجزء من قلقها ومتاعبها غضب هذا الرجل البرجوازي المحب للاقتصاد، وأعلن في بطولة رومانتيكية أنه سوف يتكفل بهذه الديون عن آخرها، وكتب إليها يقول:

"إنني أعطيك هذا المال.. لقد ربحته من أجلك منذ لحظات، وكان يجب أن أنتهي مما كان مطلوبًا مني هذا الصباح. وفي بادئ الأمر، سقط القلم من يدي أكثر من عشرين مرة، ولكنني أخذت أعمل من أجلك..

إنني لست كسائر الرجال، فأنا أترك للقدر نصيبه في الحياة، وحتى في سقطتك لن أنظر إليك إلا كمخلوقة نبيلة كريمة النفس أصابها القدر بإحدى ضرباته. أنني لن أسمح لنفسي أبدًا بأن أنضم للآخرين كي أوجه اللوم إلى امرأة مسكينة أضناها الألم، ولست أنا بأية حال ذلك الشخص الذي يرميك بأول حجر، وإذا حدث ورماك أحد بهذا الحجر فسوف أحميك بجسدي وروحي...".

ولما كان هوجو قد جعلها تقطع علاقتها بكل معارفها، ولما كان هو نفسه لا يستطيع أن يعيش معها، فقد قرر أن يعطيها عملا فاتخذها سكرتيرة له، وهي حركة طبيعية لدى الكتاب بالنسبة للمرأة التي يشعرون نحوها بالحب. وكان من واجبها أن تطلعه على كل حركاتها وسكناتها، وها هي ذي تكتب إليه قائلة:

"بعد أن عدت أمس إلى البيت أخذت أطالع قصائدك، ثم تناولت عشائي وقمت بعمل الحسابات وتمددت في السرير.. وبعد أن قرأت صحفك فترة من الوقت، غلبني النعاس وأخذت أحلم بك... هذا هو تقريري عن الميدان يا قائدي العزيز، فهل أنت راض مسرور؟".

وقبل أن يتركها ليعود إلى بيته بميدان رويال، كان هوجو يخط في مفكرته: "إن ملاطفاتك لي تجعلني أحب الحياة، أما نظراتك فتساعدني على أن أفهم السماء.."– و" في اليوم الأول من السنة سأكتب: أحبك، أما في اليوم الأخير فسأكتب: أعبدك." أو "اسمحي لي أن أعرفك في كلمة يا صديقاتي المسكينة: أنك ملاك في جهنم...".

والغريب أن ذلك العنف الذي كانت تتسم به مشاعر فيكتور هوجو وعواطفه، كان يسر جولييت بقدر ما كان يضايق آديل، خاصة وأنه كان عنفًا ينطوي على مرح صبياني جميل.

وكانت جولييت لا تزال تحتفظ ببعض الأمل في أن تصبح شيئًا مذكورًا في عالم المسرح، فأعطى لها هوجو دورًا هامًا في مسرحيته الجديدة "ماري تيودور" التي كان التدريب جاريًا فيها على مسرح "بورت سان مارتان". وكان دور جولييت في هذه المسرحية مساويًا في الأهمية لدور الممثلة الأولى في هذا المسرح– وتدعى مدموازيل جورج– الأمر الذي سبب لهذه الممثلة ضيقًا بالغًا، فأخذت تشكو من تفاهة تمثيل جولييت ورداءته، وتوغر عليها صدر هاريل مدير ذلك المسرح.

ونجحت مدموازيل جورج في أن تضم إلى رأيها صوت سانت بوف والممثل الأول بيير بوكاج الذي راح يعامل جولييت بوقاحة أثناء البروفات، وخاصة أنه كان صديقًا حميمًا لإسكندر دوماس، ولم يكن يتمنى أن تنجح مسرحية هوجو لإسكندر دوماس، ولم يكن يتمنى أن تنجح مسرحية هوجو.

وبإيعاز من سانت بوف وبوكاج وهاريل، أخذت الصحافة تهاجم مسرحية هوجو حتى قبل ليلة الافتتاح مندّدة بأنها مسرحية مليئة بأبشع الجرائم، وأن الجلاد يظهر فيها على خشبة المسرح. وفي تلك الليلة أخبر هاريل هوجو بأن

جولييت غير كفء للقيام بالدور، وأن الممثلة أيدا عشيقة دوماس تعرف الدور ومستعدة للقيام به، ولكن هوجو لم يوافق على ذلك.

وبدأ الحفل في جو ينذر بالعاصفة.. ومر الفصل الأول والثاني بسلام، وفي الفصل الثالث أخذ الجمهور يصفر لجولييت التي اضطربت بسبب عداء زملائها وعداء الجمهور، لحققت للأسف كلام النقاد.

وفي اليوم التالي، وافق هوجو في غضب وحزن تحت إلحاح من آديل وسانت بوف على أن تتخلى جولييت عن دورها في المسرحية بحجة أنها مريضة، وخاصة أنها كانت قد اضطرت فعلا إلى ملازمة الفراش.

وكتب هوجو إلى جولييت يقول:

"صدقيني أن أداءك كان عاطفيًا ومؤثرًا.. أن أولئك الذين يشكون يفعلون ذلك لأنهم لم ينصتوا.. لقد كنت جميلة وساحرة في البداية، ولم تفقدي لحظة واحدة إحساسك الدقيق بمختلف التعبيرات والفرق بين اللهجات، وهذا أمر صعب يندر تحقيقه، فكوني مطمئنة يا عزيزتي فالعدالة لابد أن تنصفك في يوم من الأيام...".

غير أن استقبال الجمهور لجولييت نزع من نفسها البقية القليلة من موهبتها المسرحية، فخرجت المسكينة من هذه التجربة القاسية وهي تردد قائلة بين حين وآخر:

"أنني لم أعد أجرؤ على الظهور على خشبة المسرح.. لقد نزعوا مني ثقتي في نفسي. والآن لن أقوى على التمثيل من جديد، فقد أصبحت مشلولة تمامًا...".

فرار جولييت

كان عام ١٨٣٤ بالنسبة لهوجو وجولييت، عامًا مضطربًا يجمع بين القمم النبيلة والهوات السحيقة المظلمة. وكانت الظاهرة الوحيدة التي تبدو مستقرة في جو حياتهما المتقلب، هي الحب المتبادل بينهما عاطفيًا وجسديًا. وكانت جولييت تعبر عن هذا الحب بطريقة مؤثرة، فكتبت لهوجو في ٢٦ فبراير من ذلك العام:

"عمت صباحًا يا حبيبي العزيز.. عمت صباحًا يا إلهي وشاعري الكبير! أليس هذا اليوم الجميل الحافل بالحب والشمس جديرًا بأن يذكرنا باليوم الذي ولدت فيه.. أنني أحبك يا عزيزي.. لقد جعلتني سعيدة جدًا في هذه الليلة.. آه! لو كان يمكن للإنسان أن يشتري سعادته بحياته لكنت أنفقت حياتي منذ زمن طويل..".

وعلى الرغم من أننا قد نبتسم من أخطائها الهجائية، إلا أن أسلوبها كان لا يبعث على الابتسام بأية حال. وكانت جولييت لطيفة وهي تقلد في بداية رسائلها شاعرها الرومانتيكي وهو يعبر عن كلمة: أحبك بألف طريقة مختلفة حاذقة، وعرف هوجو موهبتها الشاعرية فاحتفظ برسائلها إليه بإعزاز كبير.

غير أن المرء لا يعيش بالحب والروح فحسب، فقد كانت جولييت امرأة مسكينة، أثقلتها الديون. لقد كانت مدينة بخمسة عشر ألفا من الفرنكات للصائغ جانيسيه، وألفين وخمسمائة للسيدين ليبروتون وجيرار –وهما بائعان للأقمشة– وألفي فرنك لبائع القفازات، وخمسمائة أخرى لفيلان بائع أحمر

الشفاه، وعلى ذلك يكون المجموع حوالي عشرين ألف من الفرنكات، وهي ما يساوي الآن ستة ملايين فرنك!

وحاولت جولييت أن تتفاوض مع دائنيها، وأن ترهن ثيابها، وتقترض من إحدى صديقاتها، زوجة جاك لانفان، وكانت هذه الألغاز والتحركات الخفية والإجراءات المريبة سببًا في إثارة غيرة وشكوك هوجو الذي كان يشبه "رؤساء محاكم التفتيش"، وكانا على وشك أن ينفصلا عدة مرات خلال هذا العام، وقد كتب هوجو في مذكراته في الثالث عشر من يناير ١٨٣٤ يقول:

"اليوم عشيق جديد.. وغدا..".

والواقع أن جولييت التي تردت في هاوية البؤس بمحض إرادتها، وضحت بكل شيء لكي تحتفظ بهذا العشيق، لابد وأنها صدمت من قسوته، فكتبت إليه تقول:

"إنني مهما فعلت، فلا شيء يرحمني أمام عينيك.. إنك لا زلت تراني اليوم كما كنت منذ عام بالنسبة لكل الناس: امرأة يمكن أن تلقي نفسها بدافع من الحاجة بين ذراعي أول رجل ثري يرغب في شرائها، ولاشك في أن هذه أسباب مؤلمة وقاسية لانفصالنا، ولكنني لم أعد أقوى على الاحتمال..".

وكان لدى جولييت أسباب أخرى تبعث على الألم، فقد كان هوجو يحيا حياة لامعة بعيدًا عنها في شقته بميدان رويال، وكان يحدث أحيانًا أن تتعب من انتظاره فتذهب لتهيم تحت نوافذ بيته، وتظل تنظر إلى الأضواء وتسمع الضحكات المنبعثة من خلال النوافذ حتى ساعة متأخرة من الليل.

ومن ناحية أخرى، كان هوجو يتقبل في سهولة الوشايات التي تقولها له الآنسة جورج عن ماضي جولييت، وكثيرًا ما كانت هذه الآنسة تسأله في إلحاح

خبيث عما دفعه إلى اختيار "هذه المرأة المغرورة عديمة النظام" من دون سائر النساء.

وأخيرًا، كان هناك قلة اهتمامه بأمرها كممثلة، ولكن هوجو استطاع أن يجد لها عملا بمسرح "التياتر فرانسيه" بأجر قدره ثلاثة آلاف من الفرنكات في العام، فمكنها ذلك من أن تسدد إيجار مسكنها بشارع ليشيكييه، خاصة وأن ديميدوف لم يعد يدفع لها هذا الإيجار بالطبع بعد أن قطعت علاقتها به.

وفي المسرح، كانوا لا يسندون إليها أي دور، وكانت تعتقد في بعض الأحيان أن تقدير عشيقها لها كممثلة لا يزيد كثيرًا عن تقدير الجمهور في مسرحية ماري تيودور، فأي مستقبل أمامها إذن؟.. أن تبقى فتاة مسكينة لا مستقبل لها ولا أسرة، وعشيقة لرجل غيور يحتقرها؟ وحينما طردها الدائنون ورأت أثاث شقتها يوقع عليه بالحجز، فكرت جديًا في أن تقتل نفسها، وكتبت إلى هوجو قائلة:

"يا فيكتور.. لقد أضنيت نفسي هذه الليلة بوشايات الآنسة جورج الدنيئة ومصائب حياتي الماضية. لقد سخرت من الخمسة عشر شهرًا التي قضيتها معك في الحب والألم.. أنني أريد منك ألا تبعد عن نفسك فكرة أني أكن لك حبًا نقيًا عنيفًا.. لا تفعل مثل هؤلاء الصبية الذين يرون في الطريق شيخًا يمر، فيظنون أنه لم يكن في يوم من الأيام شابًا قويًا.. لقد أحببتك بكل ما في روحي من قوة، ومعي هنا كل خطاباتك وكذلك المنديل الذي أعدته إلى وهو ليس بمنديلي..".

وفي مرة أخرى كتبت إليه تقول:

"لم يعد الأمر اليوم متعلقًا بتمثيل دور في إحدى المسرحيات، وإنما يتعلق بحياتي كلها. والآن وقد حطمتني الوشايات، وحكم على دون أن يسمع دفاعي

كما حدث في مسرحيتك.. والآن وقد أنهكت صحتي وعقلي في معركة عديمة الفائدة لا جدوى منها، وأصبح يشار إلى أمام الناس كامرأة بلا مستقبل، لم أعد أستطيع ولا أجرؤ على العيش، وقد ولد هذا الخوف في نفسي الحاجة إلى الانتحار..".

ولكن، بما أن جسد هوجو وقلبه كانا أكثر حكمة من كبريائه، كان يعود إليها نادمًا، وأحيانًا يجدها نائمة ويكتب إليها قائلًا:

"ستجدين هذا الخطاب الصغير إلى جوارك حينما تستيقظين، وحينئذ سوف تبتسمين لي.. أليس كذلك؟ إنني أريد أن تبتسم عيناك الجميلتان اللتان أضناهما البكاء، فنامي يا حبيبتي واحلمي بأنني أحبك وأنني تحت قدميك، وأنني لا أستطيع العيش بدونك، وحينما تستيقظين، ستجدين أن الحلم هو الحقيقة. وأخيرًا دعيني أقبل قدميك الصغيرتين وعينيك الواسعتين..".

وكان هوجو يصطحب جولييت أحيانًا إلى ضواحي باريس ليريها وادي نهر لابييفر، ذلك الوادي الذي كان يحبه. وفي الثالث من يوليو قضيا الليلة في فندق آليكو دي فرانس بقرية جوي آن جوزاس، وكتبت إليه جولييت:

"حبيبي فيكتور.. أنني لا زلت في أشد حالات الانفعال منذ سهرة الأمس الثالث من يوليو في العاشرة والنصف مساء. لقد كنت أسعد نساء العالم وأشدهن فخرًا. أن هذا الخطاب وثيقة تكشف حالة قلبي، وثيقة اكتبها اليوم لتنفعني في بقية حياتي، ففي وسعي أن أعيد بها قلبي –في الدقيقة التي تحلو لي– إلى نفس الحالة التي هو عليها اليوم، يملؤه حب واحد هو حبك وفكرة واحدة هي أنت..".

جولييت

باريس في الرابع من يوليو عام ١٨٣٤

الساعة الثالثة بعد الظهر

وبعد عودة هوجو وجولييت إلى بلدة روش أثناء الصيف، أخذا يبحثان عن غرفة لا تبعد كثيرًا عن قصر برتان، وأخيرًا وجدا غرفة على قمة تل تكسوه الأشجار في قرية ميتز الصغيرة، مقابل اثنين وتسعين فرنكا في العام دفعها هوجو مقدما، وكانت في منزل ريفي أبيض اللون له نوافذ خضراء تغطيها شجرة كرم، وتسكن فيه أسرة تدعي أسرة لابوسيير، ثم عادا بعد ذلك إلى باريس.

وفي التاسع من يوليو من ذلك العام، كتب هوجو إلى جولييت يقول:

"يا غرامي وملاكي.. لا شيء يسكرني كالغناء الذي يخرج من فمك، والقبلة التي أطبعها على شفتيك. ولا تنسي أبدًا أن هذه السطور قد كتبت في فراشك وأنت تغنين لي أشعارًا من تأليفي بصوت يسحر روحي.. كم كنت تجعلين هذه الأشعار الهزيلة أغنيات رائعة.. لقد صنعت أنا أبياتها أما أنت فقد صنعت شاعريتها..".

وفي التاسع عشر من يوليو، غادرت جولييت شارع دي ليشيكييه وقد احتفظت في نفسها بذكرى خالدة لهذه الغرفة التي قضت فيها فترة سعيدة للغاية وشقية للغاية، وأقامت في مسكن صغير جدًا بشارع بارادي.. ولكن سرعان ما أصبحت حياتها جحيمًا في ذلك المسكن، ذلك أن الدائنين الذين عرفوا عنوانها راحوا يطاردونها في قسوة بالغة حتى اضطرت آخر الأمر إلى

الاعتراف لعشيقها بمجموع ديونها، وكانت تبلغ عشرين ألفا من الفرنكات!

والواقع أن ابن الجنرال هوجو الذي عاش فترة طويلة على بضع فرنكات في اليوم ثار على جولييت ثورة مخيفة، وانتهى به الأمر بأن قال لها أنه سوف يقوم بسداد كل هذا المبلغ تدريجيًا، ولو على حساب صحته وحياته، وإن كان هذا الوعد قد امتزج بأقسى ألوان العتاب، ولكن جولييت كتبت إليه تقول:

"آه! أنك لن تستطيع أبدًا أن تحبني حبًا نقيًا عميقًا طويل الأمد كما أحبك، ومع كل ذلك فإنني شقية بائسة، فأي نوع من التكفير تطلبه مني بسبب جريمة ليست من صنعي وجاءت من حيث لا أدري.. جريمة لم يتواطأ فيها جسمي ولا قلبي! تكلم.. قل شيئًا، فإنني على استعداد لأن أخضع لأي نوع من أنواع العقاب حتى لا يموت حبنا..".

وأخيرًا، وتحت وطأة تلك المشاكل جميعا، هربت جولييت مع ابنتها الصغيرة إلى إقليم بريتاني حيث تعيش شقيقتها رينيه في بلدة سان رونان.

وقاسى كل من هوجو وجولييت الأمرين من هذا الفراق، إذ فيما كان يهم المال أمام كل هذا الحب؟

وأخذ هوجو يناضل بكل جوارحه في سبيل إنقاذ جولييت، وذهب به الأمر إلى حد الاستنجاد بالمثال جيمس براديه، وذلك لكي يتكفل على الأقل بنفقات ابنته كلير، غير أن براديه ساوم هوجو في وقاحة على أنه لن يتسنى له أن يتكفل بابنته إلا إذا حصل له هوجو على خطاب بتكليفه بعمل لعرض التماثيل بقوس النصر!

أما جولييت، فقد كانت تكتب لهوجو قائلة:

"فيكتور! إنني أكاد أموت بعيدًا عنك.. هل صحيح أنك تكرهني وتحتقرني؟

إنني على استعداد لأن أفعل أي شيء تطلبه مني.. يا إلهي! قل فقط أنك لا تزال تريدني؟"

وكان هوجو يريدها، وكان مستعدًا لأن يعاونها، فكتب إليها قائلًا:

"لقد رأيت براديبه منذ قليل، وتحت ضغط شديد مني وافق على أن نفعل كل شيء لإنقاذك.. أنه سوف يتعهد مثلي إذا لزم الأمر، ولكن من أجل تحقيق ذلك لابد أن تكوني موجودة في باريس لتساعدي على إيضاح الأمر. ومن ناحيتي جمعت حتى الآن مبلغ ألف فرنك بمجهود خارق، فهأنت ترين ما يمكن أن يفعله الحب..

إنني سأذهب في الحال لأحجز لنفسي مكانًا للسفر، فإذا نجحت في ذلك سافرت يوم الثلاثاء ويمكنك رؤيتي يوم الجمعة.. إنني لم أتناول طعامًا منذ ثلاثين ساعة، إنني أحبك يا عزيزتي..".

وترك هوجو زوجته وأولادها في بلدة روش، وسافر إلى إقليم بريتاني. وتلاقى العاشقان في ميناء بريست حيث السماء والبحر الأزرق يشيعان في الجو جمالًا وبهجة بعد أيام الضباب. وأقسم كل منهما على ألا يحاول أحدهما أن يلحق الأذى بزميله.

وكان هوجو وهو يتبع عشيقته يحاول أن يهدئ أعصاب زوجته، فكتب إليها في السابع من أغسطس من مدينة رين يقول:

"وداعا يا عزيزتي آديل.. إنني أحبك، فإلى اللقاء في القريب العاجل، واكتبي إلي كثيرًا. أنت مبعث سروري، وشرف حياتي، فدعيني أقبل جبينك الحلو، وعينيك الجميلتين..".

وكانت آديل تخرج للنزهة بحرية أثناء ذلك مع سانت بوف تحت خمائل

وادي بييفر، فكانت ترد عليه قائلة:

"إنني لا أريد أن أكتب لك شيئًا يمكن أن يسبب لك الحزن، بما أني لا أستطيع أن أكون إلى جوارك لأواسيك.. ومن ناحية أخرى أعتقد أنك تحبني بعد كل ذلك وأنك تتسلى لأنك قد تأخرت في العودة".

وفي الثامن من سبتمبر، استقرت جولييت في قرية ميتز بغرفتها الصغيرة فوق التل، وأقام فيكتور في قصر دي روش، وبدأ الاثنان ستة أسابيع من حياة بسيطة لا مثيل لها..

وكانت جولييت تقوم بترتيب غرفتها هذه بنفسها، وتأكل في المطبخ، ولم يكن عندها سوى ثوب من الصوف وثوب آخر من قماش أبيض مخطط.

والواقع أن هذا الفقر الذي كانت تعيش فيه جولييت، كان خير دليل على حبها وطاعتها.. ومن ناحية أخرى فقد كانت هذه الحياة الخشنة وتلك العزلة التي فرضها عليها هوجو يشبعان في نفسه شهية عجيبة للسيطرة، وأهدى هوجو نسخة من كتابه "كلودجوه" إلى جولييت كتب عليها الإهداء التالي:

"إلى ملاكي التي ينمو ريش أجنحتها من جديد – ميتز في ٢ سبتمبر عام ١٨٣٤".

وكان هوجو يأتي كل يوم مخترقًا الغابة سيرًا على الأقدام، وكانت جولييت كثيرًا ما تذهب لانتظاره في الغابة إلى جوار شجرة عتيقة من أشجار الكستناء، وكانت بصدرها النافر ووجنتيها المتوردتين وجمالها الساحر تبدو كوردة رائعة نابتة في قلب الغابة. وكانت بمجرد أن ترى حبيبها تجري نحوه في خفة ورشاقة لتلقي نفسها بين ذراعيه، وبعد أن تطبع على شفتيه قبلة حارة تسير في رفقته تحت الأشجار الضخمة التي يغلف قممها الضباب الكثيف.

لقد كانا سعيدين.. وكان هوجو، ذلك الكاتب الذي يحلو له دائمًا أن يشرح العالم ويتحدث عن الله وكل الكائنات، يجد في هذه الحسناء التائبة تلميذة هادئة مملوءة بالإعجاب. وذات مرة في إحدى هذه الجولات، هبت عليهما عاصفة شديدة فاحتميا بإحدى أشجار الكستناء العتيقة، وكانت جولييت ترتعد من البرد بينما راح هوجو يبذل جهده لكي يدفئها، وأخذت قطرات كبيرة من المطر تتساقط من شعره على رقبتها الطويلة، فكان ذلك بالنسبة لجولييت ذكرى ثمينة لم تنمح من ذاكرتها أبدًا.

ولما كانت جولييت من النساء اللاتي يعترفن في قرارتهن بجميل الرجل الذي يمدح نبل روحهن لا جمالهن فحسب، ولما كان الناس قد حكموا عليها بقسوة بالغة، وكانت هي نفسها غير راضية عن ماضيها، لذلك كانت تحب أن ينقلب العاشق إلى واعظ يحدثها عن الأمل في الله، وتحب أن تسمع الشاعر يقول لها:

"إن أخطائنا قد سببت لنا آلاما كثيرة يا ملاكي المسكينة، وحينما يكون الرب قد بارك جميع الأبرياء، ثم كل التائبين، فربما يباركنا نحن كذلك في النهاية..".

وكم كانت سعادتها حينما وضع لها في فجوة خطاباتهما بشجرة الكستناء العتيقة قصيدة تحمل هذا الإهداء:

"إليك يا من أحب واحترم– ف.ه.".

وكان عنوان هذه القصيدة: "في كنيسة"، كتبها هوجو ذات مساء بعد زيارتهما لكنيسة صغيرة في بلدة بييفر أثناء إحدى جولاتهما الطويلة، يقول فيها:

"كانت كنيسة متواضعة وعقود سقفها منخفضة".

"تلك الكنيسة التي دخلناها..".

"كانت حزينة وهادئة مع احتضار النهار...".

"تلك الكنيسة التي دخلناها..".

"وكان المذبح بلا خادم كقلب بلا حب..".

"وكانت الأنوار مطفأة..".

هناك، لاشك في أن جولييت قد صلت، وهناك، شكت إلى ربها الذي كانت تعتقد فيه بكل روحها، شكت إليه يأسها كامرأة تتلفت حولها فلا تجد أثرًا "للبيت المرح ولا للأسرة الحلوة"، ولم تكن مع ذلك قد أساءت إلى أحد أو فعلت مكروها لهذا العالم الفولاذي! وهناك أيضًا، في تلك الكنيسة الصغيرة المتواضعة، عزاها صديقها الأديب الشاعر، وطمأنها وهدأ نفسها وقد رآها يومئذ جادة حلوة وجديرة بالمكان المقدس.

والواقع أن هذه القصيدة ببساطة مشاعرها، وبلهجتها الأليفة الهادئة، وبحركات أبياتها العذبة، وبذلك الانسجام التام الذي نلمسه فيها بين الفكرة والقافية كما قرأناها في النص الفرنسي، قد جاءت من أجمل القصائد التي كتبها فيكتور هوجو.

ولكن أنين جولييت الذي عبر عنه الشاعر في انسجام ونغم تامين، كان دليلًا على أنها في علاقتها بفيكتور هوجو كانت تفتقد السعادة على الرغم من كل هذا الحب المتبادل الذي كان مشبوبًا بينهما!

شاعر.. وعشيقة.. وزوجة

وبدأت بالنسبة لجولييت فترة رائعة من التقشف والحرمان، أقرب ما تكون إلى حياة الأديرة. لقد وعدها فيكتور هوجو بأن يغفر لها ماضيها، ولكنه وضع لذلك شروطًا بالغة القسوة، فكان على جولييت –التي كانت حتى الأمس القريب أكثر النساء إثارة للإعجاب في باريس بما ترتديه من ثياب موشاة بالدانتيلا والأحجار الكريمة– كان عليها ألا تعيش إلا من أجله وألا تخرج إلا معه، وأن تتخلى عن كل ترف ودلال. وقبلت جولييت أن تحيا هذه الحياة الخشنة بدافع من النشوة الدينية، وحبها لتطهير نفسها عن طريق الحب. وكان سيدها وعشيقها يعطي لها ثمانمائة فرنك في الشهر على دفعات صغيرة، وكانت تسجل له مصروفها بكل دقة.

وكان على جولييت أن تدخر من هذه النقود القليلة، المبالغ التي تدين بها للدائنين، وإيجار مسكنها.. وفضلا عن ذلك نفقات تعليم ابنتها كلير في المدرسة الداخلية، فلم يكن يتبقى لها بعد ذلك إلا أقل القليل.

وفي معظم الأحيان لم يكن عند جولييت في غرفتها نار للتدفئة، فإذا اشتد عليها البرد كانت تظل راقدة في سريرها تحلم وتقرأ أو تسوي الحسابات التي كان سيدها يطالبها بها ليراجعها بنفسه كل ليلة.

ولم تكن جولييت تأكل إلا الجبن والبيض واللبن، وكانت تأكل تفاحة واحدة في كل ليلة، ولما لم تكن لديها ثياب جديدة، كانت تقوم برتق القديم منها لإحيائها من جديد، وكان الكاتب الشهير يردد على مسامعها كل ليلة أن

"الملبس الفاخر لا يزيد من سحر النفوس الجميلة"، وكان يطلب منها أحيانًا إيضاحًا بخصوص علبة من مسحوق الأسنان، أو مريلة جديدة صنعتها من شال قديم.

والغريب أن جولييت قبلت هذه الحياة الأسيرة، بل أنها تقبلتها في مرح ممزوج بعرفان للجميل، وكتبت إليه ذات مرة تقول:

"لم أعرف قط في حياتي ما هو أكثر بشاعة من الاستدانة .. يا إلهي! إن الاستدانة شيء كريه يحقر المرء ويذل كرامته، وكم أنت عظيم ونبيل لأنك تحبني على الرغم من ماضي يا معبودي العزيز!".

وكانت جولييت في أوقات فراغها، تبيض مسودات حبيبها، أو ترتق له بعض ثيابه، فتجد في ذلك متعة كبيرة.. وكانت الناحية المؤلمة في حياتها أنها كانت تضطر أحيانًا إلى انتظار عدة أيام وهي تنظر إلى السماء وكأنها عصفور حبيس في قفص، إذ أنه كان لا يأذن لها بالخروج إلا معه.

وكان هوجو يصحبها معه في أوقات فراغه إلى سان مانديه لزيارة ابنتها كلير بالمدرسة الداخلية، أو إلى حي الانفاليد حيث يقيم عمها دروويه الذي كان يعاني وقتئذ سكرات الموت، أو إلى متجر لبيع التحف القديمة.

وكان الشاعر يحب الصغيرة كلير، وكثيرًا ما كان يكتب إليها قائلًا:

"عزيزتي كلير.. بما أنك تفكرين قليلًا في صديقك القديم، فهو يحب أن يوجه إليك هنا تحية صغيرة، ويرجو منك أن تعملي بجد وأن تكوني عاقلة وكبيرة، وذلك كي تصبحي شخصية نبيلة جديرة بوالدتك..".

وكانت هذه العزلة التي تعيش فيها جولييت تتحول إلى سجن أليم، إذا تأخر الشاعر في الحضور أكثر مما ينبغي، فكانت تشكو حينئذ قائلة:

"لقد كنت غبية إذ تركت نفسي أقاد كالكلب إلى الحظيرة.. أن نصيبي هو الطعام "والعشة" والسلسلة. ومع ذلك، فهناك كلاب يأخذها المرء معه وهو خارج من البيت، ولكنني محرومة حتى من هذه السعادة!".

وكان لا يزال هناك أمل وحيد أخير يراود نفسها حتى بعد كل هذه الصدمات وهو المسرح! وكان هوجو قد انتهى من كتابة مسرحية نثرية جديدة هي: "أنجلو طاغية بادوا"، وهي مأساة هزلية على غرار مسرحية لوكريس بورجيا، وكانت على الرغم من قيمة موضوعها، متينة التأليف.. فقبلها مسرح الكوميدي فرانسيز في حماس.

وكانت جولييت تأمل في أن يعطيها هوجو دورًا هامًا في هذه المسرحية، ولكنها لم تجرؤ على مصارحته بذلك مقدرة أنه ربما خشي أن يعهد بمسرحيته إلى ممثلة كانت مواهبها موضع جدل، على الرغم من أن النقاد كانوا يتقربون إليها، ولكن الذي حدث أن جولييت تخلت عن رغبتها في نبل وكرم وقالت له:

"لنفصل بين مصيري ومصيرك في المسرح". وكان ذلك معناه أنها تخلت عن مستقبلها الفني، فتركت "التياتر فرانسيه" دون أن يتاح لها أن تمثل فيه دورًا واحدًا. وأسند الدوران الأساسيان في المسرحية إلى "مدموازيل مارس" و"مدام دورفال"، فكان ذلك بالنسبة لجولييت أقصى درجة من الإذلال.. لا كممثلة فحسب، بل كحبيبة كذلك.

وكان سحر مدام دورفال وميوعتها المثيرة التي اشتهرت بها يثيران الخوف في نفس جولييت. وكانت مدام دورفال حينئذ عشيقة للشاعر النبيل الفريد فيني، ولم تكن تخلص له، فليس من المستبعد إذن أن تحاول إغراء شاب وسيم كفيكتور هوجو. وصارحت جولييت هوجو بمخاوفها، فكتبت إليه تقول:

"إنني غيورة، فأنا امرأة من لحم ودم، امرأة شهوانية كأشد ما تكون المرأة، وهي معك هناك كل يوم تنظر إليك وتحدثك وتلمسك.. آه! أنني أغار حقا من هذه المرأة! وهذه الغيرة تجعلني أقاسي آلاما شنيعة..".

وكان التصفيق والحماس المنقطع النظير الذي استقبل به الجمهور مسرحية "طاغية بادوا" بفضل أداء الممثلين المحبوبتين من الجمهور، عذابًا أليمًا بالنسبة لجولييت. ولكنها تغلبت على نفسها بفضل إخلاصها لحبيبها، وكتبت إليه تقول:

"آه لو أنك علمت بأي إخلاص صفقت لمدام دورفال، لما قلت في هذا المساء شيئًا يجرح قلبي المسكين، الذي صدمه أن ترضى بامرأة غيري لتمثل أنبل أفكارك! ولكن هأنذى على الرغم مني أصبح حزينة مضطربة لأنك إلى جوار هذه المرأة..".

وأحس الشاعر بمبلغ ألم جولييت ففكر في أن يعوضها عن ذلك، فقام برحلة معها في الصيف التالي. وعلى الرغم من أن مصاريف هوجو كانت كثيرة، إلا أن مؤلفاته كانت تدر عليه مالًا كثيرًا.

وفي نهاية شهر يوليو، أرادت آديل أن تسافر إلى مقاطعة أنجو لحضور حفل زواج فيكتور بافي صديق الأسرة.. وكان هوجو مدعوا للحضور، ولكنه كان يعلم أن سانت بوف سيكون بدوره هناك ففضل ألا يذهب. ومن ناحية أخرى كان هوجو يرغب في أن يسافر مع جولييت، فأخبر زوجته بأن تذهب إلى حفل الزواج في صحبة والدها. وافترق هوجو وزوجته كأخوين أكثر منهما زوجين، ولم يكفا عن تبادل الرسائل الودية.

وعلى الرغم من أشعة الشمس الساطعة على شواطئ نهر اللوار، ورغم

وجود صديقها ذو الشعر الأحمر –سانت بوف– إلى جوارها، إلا أن ذلك لم يكن يغريها تماما عن غياب زوجها، فكتبت آديل تقول له:

"حين رأيت نهر اللوار تذكرت أنني رأيته معك منذ عشرة أعوام مضت، فمتى نسافر معا من جديد..؟ إنني أشعر بأن ذوقي شاخ وأنني حزينة جدًا بلا سبب..".

وكانت آديل تشعر حينئذ بأنها ملت سانت بوف وملت الحياة، وكل شيء.. كيف لا والغيرة توقظ في النفس شعورًا شبيهًا بالحب؟ أما ابنته ديدين التي كانت حينئذ في الحادية عشرة من عمرها، فكانت تكتب إلى والدها تقول:

"إن والدتي تبكي حين تفكر في أنها ليست معك.. لا تنس ابنتك الصغيرة، ودع هذه التماثيل المنحوتة لتعود إلينا يا والدي العزيز، فنحن نحبك كثيرًا..".

وفي نفس الوقت، كان هوجو وجولييت يستمتعان إلى أقصى حد بجمال رحلتهما. كتبت جولييت إليه تقول:

"هل تذكر رحيلنا في عربة المسافرين التي تجرها الجياد، ويد كل منا في يد الآخر؟ أتذكر حين كنا نزور المتاحف والكاتدرائيات ونبدي إعجابنا بكل شيء؟ كم من التحف أثارت حماسي لأنك كنت تحبها وتشرح لي سر عظمتها بنفسك..! وكم من الدرجات صعدتها إلى ما لا نهاية لأنك كنت تصعدها أمامي..!".

وكانت هذه الأسفار بالنسبة لجولييت تخلق جوًا شبيهًا بجو الاستعداد للزواج.. أما بالنسبة لهوجو، فكانت بمثابة النزوة والتجديد والعودة إلى الحرية: حرية الصبا وانطلاق الطفولة.

وكان الشاعر يحب أن يسافر بلا برنامج معد ولا أمتعة تنقل كاهله، وكان

يطيب له أن يشاهد الأطلال والآثار ويجمع الأزهار ويرسم المناظر، وكانت جولييت التي ترضى بكل شيء هي الرفيقة المثالية في هذا الانطلاق. ولم يكن هوجو وهو بعيد عن باريس يلعب معها دور قاضي محاكم التفتيش، بل كان يغمره المرح وكأنه تلميذ صغير اجتاز امتحانه ويلعب في عطلة الصيف!

وأقامت جولييت بعد عودتها في قرية ميتز، أما آديل فأقامت في بيتها ببلدة روش..

وكان شهرًا سبتمبر وأكتوبر من عام **١٨٣٥** شهرين مطيرين، فكانت جولييت في معظم الأحيان تلزم غرفتها الصغيرة أكثر الوقت، وتنظر إلى العاصفة وقد استبد بها القلق على ابنتها الصغيرة التي كثيرًا ما كانت تقول عنها أنها "تنساها أكثر مما يجب"، أو تعيد قراءة كتاب من مؤلفات "عزيزها الرجل الصغير". وكانت لا تتعب من ذلك، بل لقد كانت تجد في ذلك متعة فائقة: "حسنا! أنني أعرف كل كلمة من مؤلفاتك.. وفي كل مرة أعيد قراءتها أشعر بالمتعة والسرور أكثر من ذي قبل، فهي تشبه وجهك الجميل الذي على الرغم من أنني أعرف كل شعرة فيه، إلا أن ذلك لا يحول دون أن أظل مبهورة كلما أمعنت النظر إليه..".

وكثيرًا ما كانت جولييت تخرج على الرغم من سيل المطر المنهمر لتذهب إلى شجرة الكستناء لانتظار حبيبها، ولكنها كانت في أغلب الأحيان لا تجد حبيبًا ولا خطابًا، فكان ذلك يسبب لها صدمة كبيرة.. ولكن سرعان ما كان الشاعر يرسل إليها قصيدة أو خطابًا من خطاباته الرائعة، فيعزيها ذلك عن كل شيء..

وكان إعجاب جولييت بشاعرها إعجابًا يقارب حد العبادة.. كان يشجعه على أن يتأله، وكان يعوده من ناحية أخرى على أن يتأمل نفسه، خاصة وأنه

كان يمر حينئذ بإحدى فترات حياته الأليمة، فقد كان يعرف أنه مكروه من الناس، وأنهم يتربصون به محاولين الوشاية به. ألم يكتب هايني يقول: "وبالنسبة لشاعرنا، كانت كل هذه المشاعر الممتزجة والعواطف المتباينة تفعل فعل السحر في تشكيله كشاعر، فجاء ديوان شعره "أغاني الغسق" الذي نشر في أواخر أكتوبر عام ١٨٣٥ مجموعة من التحف الأدبية النادرة.

لقد كان هوجو مؤلف "ديوان أغاني الغسق" يفوق بكثير هوجو مؤلف ديوان "الأغاني"، وحتى ديوان "أوراق الخريف".. والواقع أن ديوان أغاني الغسق الذي نشره الناشر راندويل في أواخر أكتوبر جاء مجموعة من التحف والروائع، فالعنوان يشع منه ضوء عذب جميل، ونرى فيه –بعد شهب وصواريخ أشعار "ديوان الشرقيات"– وئامًا عجيبًا وانسجامًا تامًا بين بساطة اللفظ والامتياز في رصف الأبيات، وكانت الأبيات المألوفة تسمو فيه إلى حد الملحمة وقد تغنى الشاعر فيه بعرسه العقلي والجسدي مع جولييت درووبه، فجاءت به ثلاث عشرة قصيدة مهداه إليها بطريقة واضحة أو مستترة، وليس هناك شك في أن الجياع إلى الفضيحة ممن قرؤوا هذا الديوان –واتخذوا من مؤلفه موقف القضاة الصارمين أكثر من الأصدقاء المجاملين.. قد أصابتهم دهشة بالغة حين وجدوا فيه أيضًا قصائد غاية في الروعة أوحت بها الزوجة والأولاد الأعزاء، فقرؤوا في قصيدة تاريخ "ليليا" تمجيدًا لفضائل آديل، ومحاولة لتكذيب الشائعات التي كانت تروج وقتئذ عن وجود خلاف بين الشاعر وزوجته، واعترافاته بالماضي الهادئ الوادع، وتقربا ينطوي على الود في الحاضر.. يقول فيها الشاعر:

"آه لو لاقيتم في موضع ما تحت السماوات".

"امرأة ذات جبين نقي وخطوة جادة وعينين حلوتين".

"يتبعها أولاد أربعة يترنح صغيرهم في مشيته".

"فإذا مر إلى جوارها حين ترقبوهم جميعا جيدًا بأعينكم".

"أعمى يضنيه العمر وتثقل كاهله الأعوام".

"فإنها تضع إحسانًا متواضعًا في يد طفلها الصغير".

"آه! فليباركها كل واحد منكم.. أنها هي".

"أخت روحي الخالدة التي تراها العيون".

"هي كبريائي وأملي وملاذي ومأواي!".

"هي سقف أعوام شبابي التي تأمل فيها أيام شيخوختي.

وأثارت هذه القصيدة، التي كانت تتوج الكتاب كما لو كانت تقدسه، الناقد سانت بوف حتى أنه لم يستطع أن يكبت غضبه، فجاءت مقالته عن ديوان أغاني الغسق متجنية غير عادلة في كل فقراتها، وانتهت بهجوم قاس على هذا "الشاعر العائلي"..

وقد تأثرت آديل إلى أبعد حد من نقد سانت بوف لديوان زوجها، وغضبت كثيرًا من تعليقه المفضوح. ذلك أنها وأن صدمتها القصائد والأناشيد التي كانت تتغنى بجولييت! فقد تأثرت تأثرًا بالغًا بأبيات مثل:

"أنت.. فلتكوني مباركة على الدوام".

"يا حواء التي لا تغريها أية فاكهة!".

"وأنت راضية مسرورة بالفضيلة".

"وتسكني في القمم النقية..".

"حواء التي لا تغريها أية فاكهة"!.. أن زوجها يعطيها هنا دورًا كانت لا

تكرهه، وها هو ذا حب فيكتور هوجو الجديد يوحي إلى زوجته برغبته في التقرب منها تقربًا عاطفيًا لا حسيًا.. لا بأس أذن، فهي لم تشعر معه يومًا بأنها كانت محبة حقا، وكانت تقبل عن طيب خاطر إلا تكون بالنسبة إليه منذ الآن سوى رفيقة شرف، فكتبت إليه تقول:

"لا تحرم نفسك من شيء، فلست في حاجة إلى اللذات ولكن يلزمني الهدوء. أنني عجوز للغاية.. وليست لي إلا رغبة واحدة: وهي أن يكون كل من أحبهم سعداء. أن السعادة في هذه الحياة قد انقضت بالنسبة إلى وأنني أبحث عنها في إرضاء الآخرين، وهو أمر أجد فيه حلاوة على الرغم من كل شيء. ولهذا فأنت على حق تماما حين تقول لي أن لدى ابتسامة متسامحة. يا إلهي! أن في وسعك أن تفعل كل شيء في العالم، وما دمت سعيدًا فإنني سعيدة.. لا تحسب أن هذا قلة اكتراث، فهو إخلاص وعدم تعلق بالحياة.. ولن استغل تلك الحقوق التي يخولها لي الزواج عليك، ففي نيتي أن أتركك حرًا كأنك شاب أعزب يا صديقي المسكين.. أنت الذي تزوجت وأنت في العشرين من عمرك..".

وبعد ظهور ديوان "أغاني الغسق" أبعدت آديل صديقها الناقد سانت بوف من حياتها رويدًا رويدًا، إذ كانت تلومه لا على مقاله غير اللائق فحسب، وإنما على ما كان يتشدق به في كل مكان من أن هذا الديوان "ينافي الأخلاق".

وفكر هوجو في أن يتحدى صديقه القديم للمبارزة، واضطر الناشر راندويل إلى التدخل في الأمر لحسم الخلاف، فقال لهوجو: "هل يليق أن يبارز أحدكما الآخر وأنتما شاعران؟".

وكتب سانت بوف إلى "فيكتور بافي" يقول:

"أن كل واحد منا غاضب جدًا من الآخر، واعتقد آسفًا أن هذا الخلاف

سوف يدوم، ولست أدري أن هناك صلحًا ممكنًا، فبيننا كثير من المقالات، وهي مقالات لا يمكن التراجع عنها أو إلغاؤها أو إنكارها..".

ومما يدعو إلى الدهشة أن جولييت التي مجدها الشاعر في ديوانه هذا كل التمجيد قد أزهرت من الغيرة أكثر مما أظهرت آديل، إذ استولى عليها القلق حين رأت النقاد يرون أن القطعة الأخيرة "تاريخ ليليا" معناها عودة الشاعر إلى أسرته، فكتبت في ٢ ديسمبر عام ١٨٣٥ إلى هوجو تقول:

"لست الوحيدة التي ألاحظ أنك قد تغيرت منذ عام، وأرى أن عاداتك ومشاعرك قد تغيرت. وقد أكون الإنسانة الوحيدة التي يمكن أن تموت من الحزن من جراء ذلك، ولكن هذا لا يهم طالما أن الأسرة مسرورة والبيت سعيد..!".

وكانت جولييت وقتئذ تشكو خاصة من أن هوجو أصبح أقل اشتهاء لها من قبل، وقد كتبت إليه تقول: "أؤكد لك جادة بلا مزاح يا عزيزي توتو[١] الصغير أننا نسلك سلوكًا يثير السخرية والضحك حقا. وقد حان الوقت لنضع حدًا لهذه الفضيحة، فضيحة عاشقين يعيشان في أتعس حالة من حالات الطهر..".

---

[١] اسم التدليل الذي كانت تطلقه جولييت على فيكتور هوجو.

تحت قبة الأكاديمية

إن كتابة قصائد الحب أمر طبيعي بالنسبة للشاعر الشاب، ولكنه حينما يبلغ مرحلة النضج ينتظر من نفسه شيئًا آخر.. وكذلك كان فيكتور هوجو في الفترة ما بين عام ١٨٣٦ وعام ١٨٤٠ يشعر بالقلق لأنه لا يلعب أي دور في الحياة العامة، حقا أن التغني بسحر جولييت وجمال الشمس والغابات شيء جميل، ولكن هذا لا يمكن أن يملأ حياة رجل يريد أن يكون روحًا تقود الآخرين..

لقد كان هوجو حينئذ يريد أن يختلط بأولئك الذين يقررون مصائر الدول، وكان يرى أنموذجه المفضل شاتوبريان عضوًا في مجلس الشيوخ الفرنسي وسفيرًا ووزيرًا للخارجية –وكان هوجو يريد بدوره أن يكون عضوًا في الأكاديمية الفرنسية، وهو أمر طالما ذكره عنه سانت بوف في مرارة وسخرية.

وكانت جولييت، وكذلك ابنته ديدين، لا يروق لهما رؤيته مرتديًا ثوب الأكاديمية الأخضر الموشي، وكانت ديدين قد ربيت على ألا تحب هذه الثياب المزركشة، أما جولييت فكانت تخشى أن يكون في قبول حبيبها عضوًا بالأكاديمية وما يتبع ذلك من التزامات اجتماعية ما يشغل وقته ويبعده عنها.

وفي فبراير من عام ١٨٣٦ اقترع على قبول فيكتور هوجو عضوًا في الأكاديمية الفرنسية ليحل محل الفيكونت لينيه، ومن الغريب أن جولييت دروويه قد تنبأت بفشله قبل عملية الاقتراع بثلاث ساعات، إذ قالت له في مزيج من التشفي والسرور: "بعد ثلاث ساعات لن تقبل عضوًا في الأكاديمية يا عزيزي

الصغير، وسوف تستطيع أن تفخر بذلك في يوم من الأيام. أما من ناحيتي، فأنا –كديدين– لا أحب أن أراك مرتديًا ثوب الأكاديمية، لأنني لا أتمسك بالمزايا السياسية التي تعود عليك من جراء ذلك، وأحب أن أظل محتفظة بك".

وعاد هوجو إلى مجرى حياته اليومية دون أن يشعر بيأس كبير أو بخيبة أمل مريرة من جراء هزيمته التي كانت سببًا في أن يزداد ارتباطه بأسرته..

وكانت آديل لا تزال تتبادل الرسائل مع سانت بوف، ولكن على فترات طويلة، فأصبح هذا يشك في أن حبها له لم يعد بالنسبة إليها سوى حلم من أحلام الماضي، والواقع أن الأيام ما لبثت أن أثبتت له صحة ظنونه.

وسافرت مدام هوجو وأولادها صيف عام ١٨٣٦ بطوله عند والدها السيد فوشيه في فوركوه بغابة مارلي –لا في روش كما كانت تفعل من قبل– وبعد فترة قصيرة فاجأها هوجو بوصوله إلى هناك، فكان ذلك بالنسبة لأولاده عيدًا أي عيد!

وحينما كان هوجو يتركهم ليسافر مع جولييت، كانت ابنته ديدين تكتب إليه قائلة: "إنني ألومك يا والدي الصغير المسكين لأنك تمشي كل هذه المسافات الطويلة على قدميك لتجد في النهاية طعام عشائك وقد أعد إعدادًا رديئًا، وعلى أية حال فلست غاضبة منك لأن ذلك سيجعلك تسرع بالعودة إلى بيتك في فوركوه حيث لن تجد إلا أناسًا يحبونك بكل قلوبهم..".

ولما كان هوجو يعود إلى ميدان رويال، كانت زوجته تلحق به هناك، ولكن أولاده كانوا يبقون في فوركوه.

وكان قطع العلاقة بين آديل وسانت بوف، معناه أن هوجو يجب أن يوزع نفسه بين زوجته وجولييت توزيعًا عادلًا. ومن ناحية جولييت لم يكن كل شيء

بالنسبة لها إلا حبا، غير أنه كان يعيش بين عواطف الفقر.

وكان هوجو قد أسكنها في باريس في شقة صغيرة بشارع القديس أنستاس الذي يقع في حي ماريه بالقرب من ميدان رويال.. وكانت هذه الشقة مملوءة بصور هوجو ورسوماته وكثيرًا ما كان العاشقان يخرجان سويا إلى محلات بيع التحف القديمة لشراء التماثيل القوطية والأقمشة القديمة. وكانت جولييت قد أعدت للشاعر في غرفة نومها نارًا جميلة على مقربة من الفراش، وركنًا للعمل به منضدة عليها كثير من ريش الأوز المبري ومصباح كبير على أهبة الاستعداد، ومئونة ضخمة من ورق الكتابة..

وكانت جولييت كثيرًا ما تقضي الليل بطوله راقدة في فراشها تنظر إلى رأس شاعرها الصغير يؤلف الأشعار الخالدة.

وكانت جولييت كثيرًا ما تقضي شطرًا كبيرًا من الليل راقدة في فراشها، وهي تنظر دون أن تنطق بكلمة واحدة إلى شاعرها الجالس على المنضدة يدون أشعار، فكانت هذه الساعات بالنسبة إليها بمثابة تعويض رائع عما كانت تحس به من إذلال في أوقات أخرى. وذات مرة قال لها هوجو بعد أن فرغ من كتابة إحدى روائعه:

– هل جعلتك تنتظرين طويلا يا عزيزتي؟

فردت عليه جولييت قائلة، وهي تنظر إليه في وله وإعجاب:

– انتظر.. لقد كنت طيلة الوقت أنظر، دون أن أشبع، إلى رأسك الصغير الملهم ووجهك الجميل النبيل، فأستولي على نفسي إعجاب لم أعرف له مثيلا..

وذات ليلة كتبت له جولييت هذه الأبيات:

"كم كنت مخطئة لأنني أردت شيئًا أفضل..".

"فالساعات تنقضي هكذا.. رائعة جميلة".

"حقا أنك جالس هناك.. ولكن عيني لا تترك أبدًا عينيك".

حقا أنك جالس هناك.. ولكنني أرى أفكارك تغدو وتروح".

"كم أنا صغيرة.. وأنا في ركني إلى جوارك".

"فأنت أسدي.. وأنا يمامتك الصغيرة".

"أنني أسمع حفيفًا هادئًا.. ينبعث من أوراقك".

"وإذا ما سقطت ريشتك.. فأنا التي التقطها لك".

وكان هوجو يتأثر من أنه معبود على هذا النحو، غير أن هذه العبادة لم تكن عمياء.. إذ كانت تتخللها فترات من الثورة والغضب والغيرة لأن جولييت كانت تعرف أن هناك سردابًا سريًا يؤدي مباشرة إلى ميدان رويال حيث يسكن فيكتور هوجو، ولم يكن يخفي عليها وهي التي ذهبت إلى هناك عدة مرات، أن هناك نساء أخريات يقعن في سحر الشاعر الجميل العظيم. وقد كتبت إليه ذات مرة تقول:

"إنِك جميل.. جميل أكثر مما ينبغي، إلى حد أنني أشعر بالغيرة وأنا معك. أني أريد أن تكون لي وحدي لأن لي من الروح ما يكفي أن يعوضك عن حب جميع النساء"..

كانت هذه "الملذات السرية" تثير قلقها وغيرتها في آن واحد، خاصة وأنها ضبطته متلبسًا بالكذب أكثر من مرة كأن يقول لها: "أنني مضطر للذهاب لرؤية أسرتي في الريف يا عزيزتي..".

ولكنها لا تلبث أن تكتشف أن الأسرة لا تزال في بيته بميدان رويال، فأي

النساء كان يخفيهن وراء هذا الكذب؟ لقد غارت من قبل من الممثلتين الجميلتين الآنسة جورج، وماري دورفال.. وها هي ذي الآن تخشى صانعة قبعات مدام دورفال، وتخشى آنسة تدعي ليزون تعمل راقصة على مسرح الأوبرا.

وكانت هناك نساء كثيرات يحاولن إغراء هذا الرجل الذي كان لا يبذل أي جهد لمقاومتهن، فمن ممثلات يتطلعن إلى الحصول على أحد الأدوار، إلى كاتبات مبتدئات وسيدات ضعيفات الخلق من المجتمع الراقي، كلهن يأتين ويقرعن باب ذلك المكان السري الذي اتخذه هوجو مكتبًا له!

ولم يكن من المعقول أن تمنعه جولييت من الخروج بدونها في الوقت الذي كانت فيه سجينة في غرفتها، فلما لم تعد تستطيع أن تروض نفسها على هذا الطغيان كتبت إليه تقول:

"منذ نحو أربع سنوات وأنا أرزح تحت وطأة حبك حتى أصبحت في حالة لا أستطيع معها أن أتنفس أو أتحرك. وقد أصبحت ثقتي فيك عرضة لأن تدفن تحت أنقاض علاقاتنا..".

والواقع أن جولييت ما كانت لتحتمل ذلك كله لولا تلك الرحلات اللطيفة الممتعة التي كان يصطحبها فيها معه، فكانت تقضي معه كل صيف أوقاتًا رائعة تدوم خمسة أو ستة أسابيع يسافران فيها إلى بلدة فوجير أو إلى بلجيكا حيث الحصون العتيقة والأبراج العالية.

أما آديل، فكانت تبقى مع أولادها الأربعة في الريف، وكان يصلها من زوجها خطاب كل يوم.. ولكنها منذ لم يعد يتردد عليها سانت بوف لتنفس عن مشاعرها، لم تعد تستطيع أن تقبل اختفاء الزوج بنفس الروح العالية التي كانت

تتقبله بها من قبل، ولهذا فقد كانت تقول له:

"في السنة القادمة، يجب ألا تسافر بدوني..".

وفي ٥ مارس عام ١٨٣٧، وقع حادث محزن لم يكن في الحسبان.. فقد توفي المسكين أوجين هوجو مصابًا بالجنون، وكانت وفاته تعطي لفيكتور هوجو الحق في أن يحمل لقب فيكونت، وهي خطوة تؤدي إلى مجلس الشيوخ، وبدأت آديل بالفعل توقع رسائلها بهذا التوقيع: "الفيكونتيسة فيكتور هوجو".

ولم يكن يخفي على هوجو مدى ما كانت تقاسيه جولييت من جراء انقطاع صلتها بالمسرح، وكان لا ينكر بينه وبين نفسه أنه كان مسئولًا عن ذلك، ومن ثم فقد أراد بعد أن فرغ من كتابة أروع مسرحياته "روي بلاس " التي كتبها في شهر واحد، أن يسند إليها دور الملكة في هذه المسرحية، فأثار ذلك في نفسها سعادة جارفة.

ولكن آديل تدخلت في الموضوع، فأرسلت دون علم زوجها خطابًا إلى جولي مدير المسرح تعبر له عن مخاوفها من جراء إسناد الدور إلى ممثلة ليست أهلا للقيام به، مما يؤثر تأثيرًا سيئًا على مسرحية زوجها التي تتوقع لها كل نجاح، والواقع أن آديل كانت تخفي غيرتها من جولييت تحت ستار من "الغيرة الفنية" على أعمال زوجها الأدبية. ونجحت آديل في تحقيق رغبتها، ولاسيما أن هوجو كان قد خضع هو الآخر إلى رأى مدير المسرح، فكان ذلك بالنسبة لجولييت ضربة أليمة بالغة القسوة.

غير أن المحبة المسكينة المخلصة التي تبدد من نفسها آخر شعاع من الأمل في العودة إلى المسرح، وكسب عيشها وعيش ابنتها كلير عن هذا الطريق، تصرفت تصرفًا رائعًا في ليلة الافتتاح.. فارتدت لتلك المناسبة ثوبًا جديدًا،

وذهبت لمشاهدة المسرحية وكادت تدمى كفيها الجميلتين من كثرة التصفيق!

ولكن ماذا يؤول إليه مصيرها لو حدث أن هجرها هوجو؟ وحتى لو أنه ظل مخلصًا أتبقى طيلة حياتها مجرد امرأة مخطئة؟

وراحت هذه الفكرة الأخيرة تنمو في نفسها مقرونة بأمل في أن يعترف هوجو بحبها العظيم بقسم ينطق به، لا أمام الناس بل أمام الله، وما دام الزواج الشرعي بينهما مستحيلًا، أفلا يحق لها أن تحصل منه على إقرار روحي بهذا "الزواج الغرامي"؟ لقد كانت تقول له أحيانًا وهي تحرص على ألا تثير غضبه:

"أنك إنسان غريب لا منطق له، فأنت تترك ثمرات روحي تسقط أمامك لتأكلها الديدان، بدلا من أن تقتطفها أنت وتتذوقها كفاكهة عجيبة آتية من الجنة".

وكان هوجو في أول الأمر يرد على هذه الرغبات العاطفية في شيء من الضيق، متعللًا بأنه مرهق بالعمل.. ولكن جولييت كانت لا تصدقه، فلماذا أذن كل ها التأنق وكل هذه السراويل الضيقة وكل تلك العناية بتصفيف شعره؟

ولكن سرعان ما تحقق الأمل، ففي ليلة ١٨ نوفمبر عام ١٨٣٩ أقسم لها هوجو على أنه لن يتخلى عنها قط، ولا عن ابنتهما كلير، ووعدته جولييت في مقابل ذلك بأن تترك مهنة التمثيل إلى الأبد.

ولم يكن هذا الاتفاق من قبيل البيع والشراء، وإنما كان بالنسبة لجولييت نوعا من الزواج العرفي، أما بالنسبة لكلير فكان معناه أن يتكل بها هوجو. وكتبت جولييت لهوجو في اليوم التالي تقول:

"لاشك في أن هذه سعادة لا مثيل لها وأمل قادم من السماء، حتى أنني لم أنم في الليلة الماضية غير بضع ساعات قليلة، فلما استيقظت في الصباح كنت

أشعر بأنني زوجة جديدة.. آه! أنك زوجي تقريبًا! نعم أنني زوجتك، ونستطيع منذ الآن أن نعترف بذلك بلا خجل. أليس كذلك أيها المعبود؟ ومع هذا، فاللقب المفضل الذي أريد أن أظل محتفظة به قبل جميع الألقاب الأخرى هو: عشيقتك..".

ولكن ماذا كان شعوره هو؟ أنه كان يعجب بكل هذا الجمال الذي يعرض نفسه عليه، وهذه المخلوقة النبيلة وهذا الحب العاطفي، لقد كان الشاعر يعترف بأنه مدين لها بسبعة أعوام من السعادة أعادت إليه ثقته في نفسه بعد خيانة زوجته ومع ذلك كان مستمرًا في فرض العزلة على زوجته العرفية، فكانت تقضي الليل سجينة في غرفتها.. وهي عيشة كانت تعتبر عذابًا أليمًا بالنسبة لهذه المرأة "من إقليم بريتاني" التي اعتادت أن تحيا في الهواء الطلق، هذا في الوقت الذي كان هوجو لا يزال يستبيح فيه لنفسه أن يرتكب كل أنواع النزوات..

وكان هوجو لا يزال يرغب بشدة في أن يدخل الأكاديمية الفرنسية، ولما كان من ذلك الصنف من الرجال الذي يحصل دائمًا على ما يريد، فقد رشح نفسه للمرة الخامسة لشغل المقعد الذي خلا بوفاة المؤرخ ميشوه في عام ١٨٣٩.

وفي عام ١٨٤٠، كتبت إليه جولييت تقول:

"كم أود إلا يكون هناك أكاديمية ولا مسرح.. وإنما أريد ألا يكون في العالم سوى طرق واسعة وعربات لنقل المسافرين، وفنادق في الطريق، وفيكتور وجولييت يعبد كل منهما الآخر..".

ولكنها في الليلة السابقة على يوم الاقتراع، وبينما كان هوجو يهم بالخروج

من عندها عائدًا إلى بيته، ألقت نفسها بين ذراعيه وهي تقول:

"عمت صباحًا يا عزيزي عضو الأكاديمية.. هأنتذا تجلس على الكرسي في انتظار أن تصبح رجلًا عجوزًا!

وكانت جولييت قد أعدت ثوبًا جميلًا لهذه المناسبة، وفي الموعد المحدد حضر إلى غرفتها رجل مرسل من قبل هوجو كي يصطحبها إلى الحائكة لتحضر ثوبها الجديد، إذ كان الشاعر يحرم عليها أن تخرج وحدها.. فلما فرغت من ذلك، انطلقت إلى الأكاديمية فبلغتها قبل أن يصل إليها أي مدعو آخر..

ولم تكد تنقضي لحظات حتى ضاق المكان على سعته بالحاضرين الذين كان من بينهم آديل وأولادها وعدد من الشخصيات الكبيرة، وعدد كبير من الممثلات اللاتي أخذن يشرن خفية إلى جولييت وآديل..

وسرعان ما وصل الشاعر الشاب وعلامات الانفعال بادية على وجهه، وكانت ابتسامته الأولى موجهة إلى جولييت فكاد يغمى عليها من فرط التأثر. وفيما بعد، كتبت إليه تقول: "شكرًا أيها المعبود.. شكرًا لأنك فكرت في المرأة المسكينة التي تحبك في مثل تلك اللحظة الجادة السامية..".

وعلى الرغم من أن هوجو كان وقتئذ على قدر عظيم من الثراء، فقد كان لا يكف عن وعظ امرأتيه بالاقتصاد في النفقات، وكان يردد قائلًا:

"أن رأس المال يجب أن يبقى سليمًا لا يمس، وعلينا أن نعيش من الدخل.."

ومع ذلك فقد كان لا يبخل أبدًا على نفسه، فأصبح متأنقًا في ملبسه.. الأمر الذي كانت جولييت تشعر من أجله بالقلق، رغم أنها هي التي كانت قد أوعزت إليه بذلك حينما رأته لا يهتم بأناقته في بدء علاقتهما.. وفي ذلك

كتبت إليه تقول:

"أنني أعض بنان الندم على اليوم الذي نصحت لك فيه بالتأنق! ولكن هل كان يدور بخلدي أنك سوف تحب يوما هذا التعالي الذي لا يليق برجل مثلك؟! آه لو أستطيع أن أعيد إليك حمالات سراويلك التي كنت ترتديها فيما مضى!، وكذلك شعرك الهائش وأسنانك التي كانت تبدو كأسنان تمساح!".

وكان هوجو يتركها تقول ما تشاء، فرجل الدولة المقبل يجب أن يكون عظيم المظهر.. أما آديل التي كانت تشعر بمدى متانة العلاقة بين زوجها وجولييت وتقلق كثيرًا من جراء ذلك، فقد حاولت أن تستغل طموح زوجها لتشن هجومًا على جولييت، فكتبت إليه تقول: "لشد ما أخشى أن تضطرك هذه الالتزامات التي أخذتها على عاتقك إلى سحب جزء من مالك الذي ادخرته بعد جهد جهيد.. ومن ناحيتي تنازلت عن كل حق من حقوقي فيما يختص بالثروة، ولا أعتبر نفسي أكثر من رئيسة بيتك المكلفة بمراقبة شئونه.. أنني أحدثك كأخت أو كصديقة ولا أسعى أبدًا وراء أية مصلحة لنفسي، ولست أدرى ماذا أستطيع أن أفعل كي تصدق ذلك، ففكر في أمر مستقبلك، وابحث أي الطرق حتى تستطيع أن تخفف من أعبائك..".

وكان التخفيف من أعبائه معناه أن يقطع علاقته بجولييت، وهو الذي لم يفكر قط في ذلك. حقا أن الروابط الجنسية بينهما كانت أقل قوة عما كانت عليه في الماضي، ولكن جولييت كانت تقوم بالدور الذي لم تعرف زوجته أن تقوم به أو لم تشأ أن تقوم به: دور المرأة التي تحب أن تصحبه في رحلاته وتدون له رواياته وأشعاره، والخادمة التي تطريه وتمدحه وتمتثل لأمره ونهيه. ولهذا، فإننا نلاحظ بسهولة أن أشعاره التي يشيع فيها روح الاعتراف بالجميل كانت لا تزال تهدي إلى جولييت: "جولييت، هذا الاسم الساحر، ينمو في نفسي ويصبح

شعرا.. أنك لست قلبي وحسب، وإنما كل أفكاري، وإذا كان لدى شيء من العبقرية فهو آت منك..".

وكان لآديل وقتئذ بعض علاقات غرامية، فبعد أن قطعت علاقتها بسانت بوف، أخذت تغازل في شيء من الدلال والميوعة صديقا آخر كان قد جاء إلى منزل هوجو منذ مدة، وأصبح الآن فاقدًا عظيمًا في كل فروع الفن: المسرح، والأدب، والتصوير.. هو تيوفيل جوتييه الذي يطلقون عليه اسم: "تيو الطيب".

محنة عروسين

نحن الآن في يناير من عام ١٨٤٣م، والعام الجديد يبدو جميلًا حافلًا بالآمال الحلوة.. فلأول مرة منذ خمس سنوات، سيعرض هوجو مسرحية جديدة على مسرح الكوميدي فرانسيز هي مسرحية "لي بروجراف"، كما أن ابنته الكبرى ديدين "ليوبولدين –وكانت مخطوبة لفتى تحبه الأسرة كثيرًا يدعي شارل فاكيري– سوف يعقد قرانها في فبراير القادم. وأخيرًا، فقد كان هوجو وجولييت يزمعان القيام برحلة إلى إسبانيا في الصيف القادم.. أليس ذلك برنامجًا رائعًا؟

وعلى الرغم من كل ذلك، كانت علامات الكآبة والحزن بادية على وجه الكاتب الكبير.. فهل كان يخفي شيئًا ما؟ أم أنه كان يقاسي من قلق مجهول؟.

وتم زواج ديدين، وكان لرحيل الابنة الكبرى التي نضجت سريعًا أثر كبير على نفس هوجو إذ كانت هي الابنة المفضلة التي يحبها حبًا جمًا، وكانت من ناحيتها تبادله هذا الحب.

ولما رأت جولييت درowيه مدى حزن هوجو على فراق ابنته، كتبت إليه تقول: "آمل أيها الملاك المسكين أن تكون أكثر شجاعة، وألا تكون سعادة ابنتك المعبودة بالنسبة إليك مشارًا لليأس والدموع..".

وحل فصل الصيف، وسافر هوجو وجولييت كما اتفقا من قبل إلى الجنوب الغربي من إسبانيا، على الرغم من معارضة آديل. وكان هوجو يتوقع أن تشفيه هذه الرحلة من أحزانه التي كان يشعر بها في باريس منذ زواج ديدين، التي أصبحت الآن حاملًا في الشهر الثالث، والتي كانت قد ألحت على والدها في

ألا يسافر إلى إسبانيا مدفوعة بقلق غامض، وذلك حين ذهب إلى مقاطعة نورماندي ليودعها في اليوم التاسع من شهر يوليو.

وكتب هوجو وقتئذ يقول لابنته بعد رحيله: "آه لو تعلمين يا ابنتي كم أصبح كالطفل الصغير لما أفكر فيك.. أن عيني تمتلئان بالدموع حينئذ وأود ألا أتركك أبدًا.. أن هذا اليوم الذي قضيته عندكم في بلدة الهاف شعاع مضيء في فكري لن أنساه قط ما حييت".

ومع ذلك فقد شعر هوجو بسعادة جارفة لما رأى أول عربة تجرها الثيران بأصواتها المتوحشة التي كانت كموسيقى تذكره بسنوات طفولته العزيزة! أن إسبانيا قد سحرته بمناظرها الطبيعية العنيفة، ولغتها الحبيبة ونسائها الرشيقات..

وعلى مقربة من مدينة سان سباستيان، شاهد هوجو مكانًا بديعًا به كثير من المنازل البيضاء العالية، وآلافا من النوافذ التي علقت فيها الخرق الحمراء والصفراء والزرقاء، ونساء فاتنات يجدفن في القوارب، يهن عيون سوداء واسعة وشعر فاحم رائع..

وبعد أن توغل هوجو وجولييت حتى بلدة بيمولون، عادا عن طريق جبال البرانس فوصلا في الثامن من سبتمبر إلى جزيرة أوليرون.. وكان يبدو على هوجو أنه يرزح تحت وطأة حزن غريب يقارب حد الانهيار، وكانت هذه الجزيرة ذات منظر كئيب فبدت له كأنها "نعش كبير ممدد في عرض البحر".

وفي اليوم التالي، فرا من الجزيرة واتخذا طريق العودة حتى وصلا إلى مدينة روشفور، وكان هوجو يريد أن يذهب من هناك إلى ميناء الهافر ليرى ابنته الكبرى ديدين وزوجها شارل فاكيري، خاصة وأن زوجته وأولاده كانوا يقيمون وقتئذ على مقربة منهما ببلدة جرافيل في فيلا صغيرة كان والدها مسيو فوشيه

قد أجرها لهم، وكانت فكرة أن الأسرة على وشك أن تكون كلها مجتمعة تعيد إلى الكاتب مرحه وبهجته.

وما كادا يبلغان قرية سوبيز الصغيرة حتى اقترحت عليه جولييت أن يستريحا بعض الوقت في حانة صغيرة، يشربان فيها زجاجة من الجعة، ويقرأن الصحف التي لم يطلعا عليها منذ أيام.

ودخل هوجو وجولييت الحانة، وكانت خالية تمامًا إلا من شاب كان يجلس وحده إلى منضدة صغيرة، وسيدة جالسة إلى خزينة النقود، هي صاحبة المقهى..

وجلس هوجو وجولييت في ركن بأقصى الحانة، وكان على المائدة مجموعة من الصحف.. وبعد أن طلبا زجاجة من الجعة، تناول هوجو أول صحيفة أمامه وأخذ يتصفحها، ولم تنقض لحظة حتى التفت إلى جولييت، وقال لها في صوت مخنوق وهو يشير بأصبعه إلى خبر في الصحيفة:

– آه! إن هذه كارثة رهيبة!

ورفعت جولييت بصرها إليه، فشاهدت على وجهه أمارات يأس لا توصف. وكتبت جولييت درومويه في مذكراتها في ٩ سبتمبر تصف هوجو في تلك اللحظة:

"لن أنسى ما حييت تعبير اليأس البالغ الذي كان يكسو وجهه النبيل وهو يشير بأصبعه إلى الصحيفة.. لقد كان منذ لحظة واحدة باسمًا سعيدًا، وفي أقل من ثانية، وبلا مقدمات– صار كالمصعوق.. كانت شفتاه بيضاوين، وعيناه الجميلتان تنظران دون أن تريا شيئًا وقد بللت الدموع وجنتيه، وأمسكت يده اليمنى بقلبه كما لو كانت تريد أن تمنعه من أن يثب من صدره، فأخذت الجريدة ورحت أقرأ الخبر...".

أما ذلك الخبر الذي أشار إليه هوجو، فكان يقص حادثًا أليمًا، وهو غرق ابنته المفضلة ديدين وزوجها شارل فاكيري، ففي ليلة الاثنين الرابع من سبتمبر، غادرت ديدين وزوجها ميناء الهافر وقصدا إلى قرية فيليكييه لقضاء عطلة آخر الأسبوع. وفي اليوم التالي، وبينما كانا يركبان قاربًا في نهر السين، إذ بالقارب ينقلب بهما فجأة فيغرقان في النهر.

ومن هذه الحانة الكئيبة في قرية سوبيز كتب إلى زوجته يقول:

"أيتها المرأة المسكينة، لا تبكي، ولنرض بما ادخره لنا القدر.. لقد كنت أحب هذه الفتاة المسكينة حبا لا تستطيع أي كلمات أن تعبر عنه.. إنك تعرفين كم كانت ديدين لطيفة.. أنها أجمل وأرق فتاة في الوجود.

وا أسفاه! لقد كانت ديدين سعيدة أكثر من اللازم.. آه! لشد ما أتألم! ولشد ما أتوق إلى البكاء معك ومع أولادنا الثلاثة المساكين!.. أنني قادم توا.. لنذرف الدموع معا يا أحبائي المساكين، فإلى اللقاء في القريب العاجل. يا عزيزتي آديل.. أن هذه الضربة المروعة يجب على الأقل أن تزيد الرابطة بين قلبينا!".

وفي ديسمبر –أي بعد انقضاء أكثر من أربعة أشهر من الحادث– لم يكن هوجو قد شفي بعد من انهياره. لقد هدته كارثة ابنته، وكان يبدو عليه أنه قد شاخ عشر سنوات دفعة واحدة، وفي ذلك كتب الكاتب الكبير بلزاك يقول: "من الجائز أن يكون فيكتور قد تقبل موت ابنته كعقاب له على علاقته بجولييت..".

والواقع أن بلزاك لم يكن مبالغًا في قوله، فقد أخذ هوجو يكره جولييت لفترة من الزمن، وأسرع إلى زوجته ليكون إلى جوارها..

وعندما كان يذهب لزيارة جولييت. كانت تتوسل إليه أن يسري عن نفسه بعض الشيء، وأن يهرب من هذا التأمل الأليم الذي استغرق فيه. ولما كان هوجو لا يستطيع الكتابة، فقد طلب من جولييت أن تدون له مذكرات عن رحلتهما إلى جبال البرانس.

وكان هوجو كثيرًا ما يذهب إلى قرية فيليكييه ليبكي على قبر ابنته الذي تحيط به أشجار الورد الصغيرة، وظل يحرص سنوات عديدة على أن يكتب في الرابع من سبتمبر قصيدة في ذكرى وفاة ابنته الحبيبة. وكان حزنه العظيم ينطوي على ندم لم يكن له من سبب إلا أنه كان بعيدًا عن أسرته مع عشيقته ساعة وقوع الكارثة، وكان لا يقبل ذلك على نفسه.

فضيحة سان روك

من طبيعة بعض النفوس البشرية حين تتردى في مهاوى الحزن والشرود، أن تبحث عن السلوى والعزاء بالانغماس في الشهوات. وهكذا كان فيكتور هوجو في عام ١٨٤٣، إذ كان حزنه البالغ يدفعه إلى التماس الخلاص من عاطفة ما.. ولكن أين..؟

جولييت؟.. إنها لم تعد تكفيه. إن هذه المرأة المسكينة التي كانت سجينة في غرفتها منذ عشر سنوات قد ذبلت.. إنها الآن في السابعة والثلاثين، وكان المشيب قد أخذ يتسلل إلى شعرها منذ سبعة أعوام..

صحيح أنها كانت لا تزال تحتفظ بجمال عينيها وطابعها الراقي الحنون، ولكنها لم تعد "ذلك الجمال الذي لا يوصف" الذي عرفه حبيبها في قمة روعته أيام الأميرة نجروني.. وفوق هذا، فقد كانت جولييت تسبب له بعض الضيق على الرغم من روحها اللطيفة، فما الذي كان لا يزال لديها لتقوله له؟ إن رسائلها إليه لا تعدو أن تكون في نهاية الأمر إلا تراتيل طويلة من المديح والشكوى؟

لقد أصبحت جولييت تشك في أنه يعني حتى بأن يقرأ رسائلها، فكتبت إليه تقول: "لم أعد أصلح لشيء في هذه الدنيا حتى لأن أجعلك سعيدًا، فمنذ عامين ونصف وأنت لا تكاد تعرف أنني في هذا العالم لأحبك.. لست أنكر أنك إنسان نبيل بكل ما في هذه الكلمة من معني، ولكن ليس هذا هو الحب، فالحب ليس معناه أن تكون طيبًا ونبيلًا فقط.. أني أشعر بأنني لا أخدع نفسي،

ولكنني أحبك حبًا يفوق الحد، وربما كان هذا سببًا في أنني لا أرى الأمور في وضوح..

إنني أعرف تمامًا أنك تحتفظ منذ أكثر من عامين بكل مظاهر الحب في أحاديثك وفي تصرفاتك معي، ولكن علام يدل ذلك؟ أنه يدل في نظري على أنك رجل مهذب حسن التربية، فهل هذا كل شيء؟.. كلا، فهناك من المشاجرات العنيفة ما هو أكثر بلاغة وإقناعًا للقلوب المحبة من المديح والغزل، وهناك من الركلات ما هو أكثر حبًا وحنانًا من بعض القبلات التي تطبع على الجبين، أو حتى على الشفاه"..

إن جولييت كانت على حق.. فعلى الرغم من أن هوجو كان يعترف بمبلغ تضحياتها وقسوة الحياة التي يفرضها عليها، إلا أنه لم يعد يشتهيها، لقد كان لها الحق في أن تخرج معه في ثلاث مناسبات تذكارية فقط: أول يناير، والسابع عشر من فبراير، وهو ذكرى الليلة الأولى لغرامهما، والتاسع عشر من مايو، وهو عيد القديس جولي.

لقد كانت جولييت ترتاب في أن هناك نساء أخريات يشبعن رغبات حبيبها الحسية، والواقع، أنها لم تتعد الحقيقة في شكوكها وهواجسها، إذ كانت كثيرات من الممثلات والفتيات الشابات ممن يعشقن الأدب كن يصعدن جميعا سلم ميدان رويال الخفي. وكتبت إليه جولييت في ١٧ يناير عام ١٨٤٣ تقول:

"أعرف أن لديك من الفضول ما يدفعك إلى رؤية ومعرفة تلك النسوة اللاتي ينشغلن بك انشغالًا يثير كبرياءك كرجل وكشاعر وكاتب. ولست أريد من ناحيتي أن أمنعك من ذلك، ولكنني أحس فقط بأنني سأموت عند أول خيانة، هذا كل ما هنالك..".

وعلى الرغم من ذلك، فلم تحل بداية عام ١٨٤٤ حتى كانت هناك ملكة جديدة تتربع على قلب هوجو، وهي الفتاة الشقراء ذات العينين الهائمتين "ليوني دونيه".

كانت ليوني فتاة نبيلة نشأت في الأوساط الراقية، وهربت وهي في الثامنة عشرة مع رسام يدعي فرانسوا بيار لتقيم معه في الاستديو الخاص به في ميدان فاندوم. وكان بيار هذا رسامًا لا موهبة له، منحل الشخصية بعض الشيء.. ولكنه أحرز نجاحًا كبيرًا، إذ كان لويس فيليب يبحث عن لوحات تاريخية كبرى ليزين بها قصر فرساي، وهو نوع من اللوحات كان بيار ينتجه بالجملة.

وكان بيار قد سافر إلى النرويج وبلاد الاسكيمو، ومن هنا أصاب بعض الشهرة الرومانتيكية التي أثارت إعجاب ليوني، فرافقته في عام ١٨٣٩ في رحلة إلى شمال أوروبا أظهرت خلالها كثيرًا من ضروب الفتنة والشجاعة والميوعة.

وفي العام التالي، تزوجها الرسام وهي حامل في الشهر السادس، وأقامت معه على شاطئ السين على مقربة من بلدة ساموا، حيث اشترى لها منزلًا جميلًا ذا حديقة واسعة، وقاربا صغيرًا للنزهة. ولم يأت عام ١٨٤٢ حتى أصبحت "مدام بيار" معروفة على أنها أول فرنسية سافرت إلى منطقة سبتزبرج، فأخذت تستقبل في بيتها كثيرًا من الكتاب والشعراء عن طريق جارة لها تدعي مدام فرتونيه هاملان، وهي امرأة في السابعة والستين من عمرها كانت معروفة جيدًا أيام حكومة الإدارة، وكان شاتوبريان وهوجو من بين أصدقائها.

وقدمت مدام هاملان فيكتور هوجو إلى زوجة الرسام، فأعجب كل منهما بالآخر وتقابلا عدة مرات، ولكن سفر هوجو مع جولييت إلى جبال البرانس في عام ١٨٤٣ وغرق ابنته ليوبولدين مع زوجها قد أنقذا جولييت من أن يخونها

هوجو مع هذه السيدة.

والآن في عام ١٨٤٤، ها هو ذا هوجو يئن تحت وطأة الحزن الذي ألم به من جراء كارثة ابنته، فيرغب في أن ينتزع نفسه من الألم بأن ينغمس في العمل والحياة الرسمية، ومن ثم فقد أخذ يواظب على زيارة الأكاديمية الفرنسية والبلاط، وبالطبع على حبه الجديد!

ولم تكن مدام بيار سعيدة في ذلك الوقت مع زوجها الفنان الذي كان يسئ معاملتها، ولما كانت الشفقة بالنسبة لفيكتور هوجو أمرًا يحرك عواطفه ويثير رغبته، فقد تقابل هذان الشخصان اليائسان وأخذًا يخرجان في نزهات ليلية يشاهدان فيها باريس التي وصفها في رواية "نوتردام"، وأخذ الشاعر يكتب القصائد ورسائل الحب من جديد لملاك غير جولييت..

وكانت هذه الرسائل مشابهة للأسف لتلك التي كان يكتبها لجولييت، ذلك أن الرجل لا يستطيع أن يغير نفسه تمامًا، فبينما يظل دور العاشقة دائمًا هو نفس الدور، يوزع الرجل هذا الدور على نساء أخريات.. هكذا كان الأمر بالنسبة لهوجو، الذي كان يوزع دور المحب على "ممثلة" أصغر سنا وأكثر صلاحية.

ولما كانت كل "ممثلة" تصبغ دورها بسمات معينة تتفق مع طبيعتها الخاصة، فقد كانت ليوني بيار تؤدي دورها بطريقة تختلف عن طريقة جولييت دروويه، فهي وإن كانت تتفق معها في زعمها بأنها هي الأخرى روح جريحة مسكينة، وهو أمر كان يؤثر تأثيرًا بالغًا في نفس الشاعر المرهفة، إلا أنها لم تكن بدائية عنيفة كجولييت.. وإنما كانت من ذلك الطراز الذي يمتزج فيه السحر بالميوعة باسمه كانت أم غاضبة.

ولما ذكرته جولييت بوعوده، أجابها قائلا:

– ماذا أقول لك؟ لقد كنت دائمًا مصدر سعادتي، وأنت الآن عزائي وسلواي.. فكوني كما أنت سعيدة مباركة، واطردي من قلبك العظيم هذه الغيوم المؤقتة وهذه الأشباح التي تمر...

وبقدر ما كان هوجو يقلل من زياراته لجولييت، كان يكثر من التردد على بيت مدام هاملان حيث كان يلتقي بليوني بيار. ومن حسن الحظ، كانت جولييت لا تعرف شيئًا عن ليوني بسبب العزلة التي كانت تعيش فيها، ولكن شكوكها كانت تتجه إلى مدام هاملان، فكتبت تقول لهوجو في الرابع من ديسمبر عام ١٨٤٤:

"وا أسفاه! ففي الوقت الذي تخني فيه وحدي بكتابة رسائلك وتصحيح "بروفات" المطبعة، تمتع الأخريات بالباقي.. وقد حلمت ليلة أمس أنني أشبع هذه المرأة ضربا، وأتعشم أن أحقق في النهار ما حلمت به أثناء الليل".

إن الطموح يجلب الشقاء، إذ أن صاحبه لا يرضيه شيء.. وهكذا كان فيكتور هوجو، فمنذ أن ارتدى سترة الأكاديمية الخضراء أصبح لا يحلم إلا بحلة "مجلس الأشراف" الموشاة بالذهب. وكانت جولييت لا تريد له أن يشتغل بالسياسة، أما مدام بيار فكانت على العكس تثير فيه هذا الطموح وتسانده، ولما كان هوجو وقتئذ على علاقة طيبة بلويس فيليب، فقد صدر في الثالث عشر من إبريل عام ١٨٤٥ مرسوم بتعيين "ألفيكونت فيكتور ماري هوجو" عضوًا في مجلس الأشراف، وكان تعليق جولييت الوحيد على ذلك أن بعثت إليه برسالة تقول فيها:

"لست أدري لماذا أنعم الله الكريم عليك بهذا الشعر الجميل –وهو الذي

كـان يعـرف أنـك ستصـبح عضـوًا في الأكاديميـة وفي مجلـس الأشـراف– بينمـا خصني أنا بالشعر الأبيض الذي كان خليقا به أن ينفعك في مثل هذه المراكز العتيقة!".

وعلى العكس من ذلك كان مسيو بيير فوشيه –ذلك الرجل العجوز الطيب– يحلم طيلة حياته باليوم الذي يرى فيه ابنته آديل زوجة لرجل من أعضاء مجلس الأشراف، ولكن المقادير قد عجلت بوفاة هذا الرجل المتدين في مايو عام ١٨٤٥ فكفته مئونة أن يسمع بفضيحة كانت خليقة بأن تسبب له صدمة قاتلة!

ففي فجر يوم ٥ يوليو من ذلك العام، وبناء على الطلب المقدم من الرسام فرانسوا بيار، قام مأمور قسم حي فاندوم بالهجوم على شقة منزوية بزقاق سان روك حيث ضبط فيكتور هوجو ومدام فرانسوا بيار في وضع شائن..

وكانت عقوبة الزنا حينئذ عقوبة قاسية، فقبض على مدام بيار على الفور وأودعت سجن سان لازار، أما هوجو فقد احتج بالحصانة التي يتمتع بها أعضاء مجلس الأشراف، فتردد مأمور القسم في بادئ الأمر، وما لبث أن أخلى سبيله.

ولكن فرانسوا بيار لم يسكت على ذلك، وتقدم بشكوى إلى النائب العام باسكييه، وفي اليوم التالي طلعت جريدة "لاباتري" و"لوناسيونال" و"لاكوتيديه" وهي تتحدث عن فضيحة يؤسف لها، ارتكبها أحد أعضاء مجلس الأشراف، وعن اضطرار المجلس إلى محاكمة أحد أعضائه بتهمة الزنا.

وضحك الأصدقاء والأعداء من هذه المغامرة، ولكن الملك لويس فيليب تدخل في الأمر، فاستدعى الرسام بيار إلى قصر سان كلو وطلب منه أن يسحب شكواه، كما نصح فيكتور هوجو بأن يترك باريس لفترة من الوقت..

ولكن الشاعر فضل أن يعتكف ليكتب عند جولييت دروويه. وقد عقب الناقد سانت بوف على ذلك بقوله: "أن هوجو يعمل الآن في كتاب لا نعرفه، مؤملا أن تغطي شهرة هذا الكتاب الفضيحة الأخرى".

ولم تكن جولييت تدري شيئًا عن هذه المغامرة، ولما كتبت إليها أختها مدام لويس كوخ من أقصى إقليم بريتاني تستفسر منها عن معني هذه التلميحات التي ظهرت في الصحف، كذبتها جولييت في سذاجة وطيبة..

أما آديل، فقد تلقت اعترافات زوجها المذنب في الصباح التالي بصدر رحب، بل وبلغ من كرم نفسها أنها ذهبت لزيارة مدام بيار في السجن.

مأساة كلير

ولكن فضيحة سان روك لم تلحق بفيكتور هوجو أذى كبيرًا في حياته العملية، إذ سرعان ما توارت هذه المسألة في زوايا النسيان، وكانت الضحية الوحيدة فيها هي ليوني بيار، التي ظلت مسجونة في سجن سان لازار بين الموسات والمجرمات. وأخيرًا، وبفضل وساطة مدام هاملان، وافق الزوج على أن يوقف تنفيذ الحكم، واكتفى بأن تسجن زوجته لعدة أشهر في أحد الأديرة بشارع بوف دي بيري. وهناك، كان عشيقها الشاعر يواصل إرسال قصائده إليها، وعلى الرغم من شعورها في الدير بضيق شديد، فقد استطاعت أن تظفر بحب الراهبات، ونجحت في أن تغريهن بقراءة مؤلفات فيكتور هوجو. وفي الرابع عشر من أغسطس عام ١٨٤٥، نطقت المحكمة بالانفصال الجسدي والانفصال في الممتلكات بين الرسام بيار وزوجته ليوني.

ولما خرجت هذه المرأة الجميلة من الدير لجأت إلى جدتها.. ولفترة ما وجدت الطريق مسدودًا أمامها في بادئ الأمر، ولكن مدام هاملان ما لبثت أن مدت إليها يد المعونة، وقبلت آديل من ناحية أخرى أن تستضيفها، فأصبحت ممن يزدان بهم صالون ميدان رويال بصفة دائمة. والواقع أن من الصعب علينا أن نفسر سلوك آديل الغريب نحو غريمتها الجديدة.. هل كان ذلك عن رغبة منها في إظهار تسامحها ونبل روحها؟ أم تكفيرًا من امرأة مذنبة؟ أو أنها كانت ترمي إلى الانتقام من جولييت؟ أم تعاونا من جانب زوجة لم تعد تعتبر زوجها أكثر من شريك في المسكن؟

وكان دخل هوجو وقتئذ صغيرًا إلى حد ما، فقد كان لا ينشر شيئًا، لا لأنه

كف عن الإنتاج، ولكن لأنه استأنف مشروعًا قديمًا هو رواية "البؤساء". وكانت جولييت هي المكلفة بإعادة كتابة مسودات هذه الرواية التي كان في نية هوجو أولا أن يسميها "جان تريجان" .

وفي عام ١٨٤٦، وجدت جولييت نفسها أمام حادث مروع لا يقل إيلامًا عن حادث قرية فيليكييه.. ذلك أن ابنتها كلير براديه –التي لم يسمح والدها بأن تحمل اسمه على الرغم من أنه كان قد تزوج وأصبح رجلًا غنيًا– نمت وأصبحت فتاة جميلة حزينة، وكان هوجو من ناحيته يغمرها بالهدايا ويدفع لها نفقات المدرسة الداخلية ويهيئ لها دروسًا خاصة في الموسيقى، وباختصار كان يحبها ويعطف عليها بإخلاص كبير.

ولكن شعور الفتاة بطبيعة وضعها وإدراكها للكوارث المحيطة بها والتي لم يكن لها يد فيها، تركا في نفسها يأسًا دفينًا دفعها لأن تحاول الانتحار طلبًا للخلاص. وقبل أن تقدم الفتاة المسكينة على تلك المحاولة كتبت إلى هوجو خطابًا مؤثرًا تقول فيه: "وداعا يا صديقي فيكتور.. اعتن كثيرًا بوالدتي العزيزة، فهي طيبة ولطيفة للغاية، وكن على يقين من أن ابنتك كلير سوف تقدر جميلك كل التقدير".

وخرجت كلير من محاولتها للانتحار بمرض خطير، فنقلها والدها جيمس براديه إلى بيت قذر في أوتوي يملكه صاحب حانوت صغير، حيث زارها هوجو عدة مرات. وعلى الرغم من أن هذا كان أمرًا طبيعيًا، فقد تقبلت جولييت عمله هذا وكأنه تفضل عظيم. لقد كانت تحب ابنتها حب عبادة، ولكن ذلك لم يحل بينهما وبين كتابة خطابها اليومي لتقول له: "إن روحي مفعمة باليأس، ولكنني أحبك. أن الله الكريم يستطيع أن يسحق قلبي وقتما يريد، ولكن آخر صيحة ستخرج منه ستكون صيحة حب لك أيها المخلوق النبيل".

وفارقت كلير المسكينة الحياة إثر هذا المرض، ودفنت في مقابر سان منديه، وتلقى الفيكونت فيكتور هوجو عضو مجلس الأشراف العزاء مع والد الفتاة، الذي قرب الحزن بين قلبه وقلب هوجو، وكان ظهور الكاتب الكبير في مثل هذه الظروف، وبعد فضيحة سان روك ينطوي على كثير من الخطورة، ولكنه أقدم على ذلك في بساطة وجرأة ليقدم للفتاة الميتة ولأمها المنكوبة أكبر برهان على الإخلاص..

ومرة أخرى ها هو ذا هوجو يجد نفسه ذاهلًا حظينًا، فيحاول أن ينسى بإلقاء نفسه في الهاوية من جديد.. أنه يجري وراء المبتدئات والعاهرات، ويبحث عن المغامرة في كل صورها، وكأنه قد أصيب بشره عجيب للحم النضر أن العاشق الرومانتيكي يدخل الآن في منافسة مع الأديب الناقد تيوفيل جوتييه والرسام شاسيريوه، وحتى مع ابنه شارل هوجو على أروع جسم في باريس.. جسم "أليس سوزي". وحدث ما كان يجب أن يحدث، وانتصرت العبقرية على الشباب، ورضخ الابن آخر الأمر في ألم ينطوي على الاحترام والتسليم "للوالد العظيم" –كما كان أولاده يسمونه فيما بينهم– وكتب شارل إلى أليس يقول: "أنك اخترت الوالد بمجده، ولست ألومك على ذلك، فأي امرأة أخرى كانت خليقة بأن تفعل ما فعلت لو أنها كانت مكانك..".

وفي الوقت الذي كان فيه شارل يشتم أليس سوزي بهذه الأبيات القاسية:

"إنني أحب جسمك وأكرهه.. وأحب حياتك وأكرهها".

"وا أسفاه!.. فحياتك حافلة بالحب والغرور".

"أنها تمضي تارة في جمال.. وتارة أخرى في قبح".

"وأنا.. أذهب معها من النقيض إلى النقيض".

"لأني أحبك وأكرهك..".

"أحبك من أجل حبك..".

"وأكرهك من أجل عشاقك..".

في نفس هذا الوقت، كان والده فيكتور هوجو يجلس أمام هذه الحسناء الساحرة في غرفة نومها ذات السرير الفاخر المصنوع من خشب الورد المطعم "بالسيفر"، يمتع نظره برقبتها الرائعة التي يتغنى بها الشعراء وساقيها الناعمتين البديعتين، ويكتب لها هذه الأبيات:

"في هذه الساعة الجميلة، حين تشحب شمس الغروب".

"وحين تمتلئ السماء بالضوء الأشقر".

"كان أفلاطون يحلم برؤية فينوس تخرج من المحيط".

"أنا أحلم برؤية أليس تدلف إلى السرير"..

فترة اختبار

كان عام ١٨٥٠ وعام ١٨٥١ بالنسبة لهوجو، فترة صراع سياسي وعاطفي. وكان هوجو قد انتخب قبل ذلك عضوًا في البرلمان بأغلبية كبيرة في شهر مايو ١٨٤٩، وحصل في الانتخابات التي أجريت وقتئذ على ١١٧٠٦٩ صوتًا، وكان ترتيبه الثامن في باريس. وفي أغسطس من نفس العام، انعقد في باريس أثناء العطلة البرلمانية مؤتمر للسلام حضره مندوبون عن أكثر دول أوروبا، وانتخب هوجو رئيسًا لهذا المؤتمر بإجماع الأصوات.

وحين وقعت اضطرابات فبراير المشهورة في عام ١٨٤٨، وهي الاضطرابات التي أدت إلى إعلان تنازل الملك لويس فيليب عن العرش، كان هوجو أول من أعلن تنازل الملك على جماهير الشعب في ميدان الباستيل حيث استقبله لأمارتين صائحًا في حرارة وحماس: "إن هوجو معنا.. وهو جندي عظيم من جنود الجمهورية!".

ولما انتخب الأمير لويس نابليون بونابرت رئيسًا للجمهورية في أواخر عام ١٨٤٨ أقام الرئيس الجديد في الثالث والعشرين من ديسمبر أول حفل عشاء له بقصر "الإليزيه" ودعا إليه هوجو، فحضر هذا متأخرًا وكان لويس نابليون قد سبق له أن زار فيكتور هوجو في يونيو من عام ١٨٤٨ في بيته بشارع دي لاتور دوفرين(٢) ليكسبه إلى جانبه، وقال يومئذ الشاعر: "لقد جئت لأتفاهم معك.. إنهم يتهمونني ظلمًا، فهل تعتقد يا مسيو هوجو أنني رجل غير منطقي؟ أنهم

(٢) كان فيكتور هوجو قد ترك بيته بميدان رويال بعد حرقه في اضطرابات فبراير سنة ١٨٤٨.

يظنون أنني أريد أن أفعل ما سبق أن فعله نابليون. إن هناك رجلين يمكن أن يتخذ الرجل الطموح من أحدهما نموذجًا له .. نابليون وجورج واشنطون، وأولهما رجل عبقري، أما الآخر فرجل فضيلة وإذا كان نابليون أطثر عظمة إلا أن واشنجتون أكثر صلاحًا. وإذا ما خيرتني بين البطل المذنب والمواطن الصالح فإنني أختار المواطن الصالح.. هذا هو طموحي يا مسيو هوجو".

ولكن فيكتور هوجو كان نائبًا تقدميًا في برلمان يسيطر عليه الرجعيون، فقام بينه وبين لويس نابليون خلاف سياسي شديد سرعان ما أدى إلى قطيعة، فالجناح اليساري في البرلمان كان يستقبل لون خطب هوجو اللامعة عن الحريات بعاصفة من التصفيق، ولكنه في نفس الوقت كان يعتبره واحدًا من رجاله، أما الجناح اليميني فكان يلفظه ويعامله على أنه خارج عليه، وكان نواب اليمين يعاملونه معاملة غاية في السوء، فكانوا يلجئون في الرد عليه إلى وسائل عنيفة كالشتائم وإطلاق الشائعات الكاذبة. وباختصار، كان جناح اليمين الذي يمثل الأغلبية الرجعية في المجلس يستعمل ضد هوجو طريقتين للدفاع: مقاطعة خطبه بالضحكات الساخرة، وتذكيره بآرائه السابقة.

وهكذا بين هذين الجناحين، ومنذ قطيعته مع قصر الإليزيه، كان هوجو يجد نفسه في وسط صراع سياسي عنيف، وفي ذلك كتب في مذكراته يقول:

"يناير ١٨٥٠، منذ خمس سنوات، كنت أوشك أن أصبح الشخص المفضل لدى الملك، وهانذا اليوم أصبح الشخص المفضل في نظر الشعب، ولكنني لن أكون هذا ولا ذاك، فسوف تحين اللحظة التي يبرز فيها استقلالي، وحينئذ فإن إخلاصي لضميري سيثير إعجاب رجل الشارع ويغضب في الوقت

نفسه ذلك الرجل الذي يقيم في قصر التويليري(٣)".

أما سانت بوف الحذر، فكان قد رحل قبل تلك الأحداث ليقضي هذه الفترة القلقة في لييج ببلجيكا، وكانت آديل ترحل إلى هناك سرًا لتراه بين حين وآخر، وكانت كلما لامته لأنه أهملها وأصبح يبدي نحوها كثيرًا من التحفظ، رد سانت بوف قائلًا:

"إن صحتي قد أصبحت ضعيفة وجسمي أصبح عصبيًا للغاية، وكثيرًا ما تخونني أعضائي"..

وكان سانت بوف يؤكد لها أنه أكثر حاجة إلى الصداقة المتينة منها إلى أية علاقات أخرى. وكتب إليها ذات يوم يقول: "حين أتحدث كثيرًا عن شيخوختي، فذلك معناه فقط أنني قد تخليت عن هذا النوع الأخير من العلاقات".

وبعد، ألا تثبت لنا هذه العبارة الغريبة أن آديل كانت خاسرة من الناحيتين؟

وفي الميدان العاطفي، كان هوجو في تلك الفترة من حياته مزوعًا بين ثلاث نساء: آديل فوشيه، وجولييت درورويه، وليوني دونيه، وكن جميعا يعشن على مقربة منه في دائرة ضيقة على مرتفعات مونمارتر.

وكان هوجو يجد نفسه مضطرًا لأن يكرس لكل واحدة منهن جزءًا من وقته، فتراه يجري من الواحدة إلى الأخرى، وكان يحدث في بعض الأحيان أثناء سيره مع جولييت في الطريق أن يقابل آديل أو ليوني اللتين كانتا قد تحالفتا معا ضد جولييت!

وكانت حياة جولييت لا تزال على ما هي عليه من الضيق والوحدة مع فارق بسيط، وهو أن هوجو قد أذن لها في أن تخرج أحيانًا بمفردها للنزهة سيرًا

---

(٣) يعني لويس فيليب.

على الأقدام. وكانت جولييت لا تزال تجهل الدور الذي كانت تقوم به ليوني في حياة هوجو.

وفي التاسع والعشرين من إبريل عام ١٨٥١ ماتت مدام فورتونيه هاملان بالسكتة القلبية، وكان ذلك بالنسبة لهوجو حادثًا حزينًا وكان يعدها صديقة مخلصة وكارثة بالنسبة لليوني دونيه، التي كانت منذ أن صدر الحكم بالانفصال الجسدي بينها وبين زوجها قد وجدت في هذه المرأة الذكية خير كاتمة لأسرارها، فكانت تمضي معها أكثر وقتها أما في البيت أو في الأوبرا. وبموت هذه السيدة التي كانت الأعوام قد علمتها شيئًا من الحكمة، وجدت ليوني نفسها محرومة من نصائحها فأخذت تتأمل حالتها وتستعرض ما صنعت بها الأيام وخرجت من تلك معتقدة أنها قد أفسدت حياتها من أجل هوجو، ومن ثم فهي تستحق أن يخصها بأكبر قسط من اهتمامه، وأن من واجبه على الأقل أن يضحى من أجلها بجولييت درواويه..

ولكنها كانت كلما حاولت أن تنال من هوجو هذه التضحية، اصطدمت بمقاومة صلبة من جانب هوجو وقوبلت برفض متزايد.. ففي محاولتها الأولى في عام ١٨٤٩ هددته بأن تفضي إلى جولييت بكل شيء، ولكنه رفض أن ينصت إليها. ثم عادت تحاول مرة أخرى أن تضيق عليه الخناق بأسئلة ماهرة كأن تقول له: "إذا لم يكن لي حقوق كعشيقة، فما الذي يبقى لي في هذا العالم؟" أو "إنك تمنحها حقوقي.. وأنني لأفضل أن أموت متنازلة عن هذه الحقوق عن أن أقاسمها إياها!

وكانت ليوني تكتب إليه في بعض الأحيان لتقول:

"إنني أقبل أن تراها، ولكن لا تتهمني بالقسوة إذا ما لجأت معها إلى إجراء حاسم يضع كلا منا في مكانه الحقيقي.." أو: منذ أربعة أعوام وأنا أقوم بدور

غير مشرف، فهي تعتقد أنها المرأة الوحيدة التي تحبها.. ليكن ذلك حسب مشيئتك، وليحاسبك الله على ذلك. وسوف أعيش في يأس ولكني سأكون على الأقل بمنجاة من تأنيب الضمير، وقد جمعت كل ما يخصك هنا وتستطيع أن ترسل أحدًا ليأخذه..".

لكن ليوني لم تهدأ حتى ضربت ضربتها بعد ذلك بعامين، ففي صباح ٢٩ يونيو عام ١٨٥١، وصلت إلى مسكن جولييت بحي روديه رزمة من الرسائل ملفوفة بشريط حريري، بخط فيكتور هوجو ومختومة بخاتمة.

وما كادت جولييت تتصفح بعض هذه الرسائل حتى هوت على مقعدها في يأس، وقد أطبق على صدرها ألم مميت.. إذ كشفت لها هذه الرسائل عن سر رهيب، أن حبيبها يحب امرأة أخرى منذ عام ١٨٤٤، ويكتب لها رسائل عاطفية رائعة، تمامًا كتلك التي كان يبعث بها إليها طيلة ثمانية عشر عاما: "أنت ملاكي وحياة قلبي.. أنني أقبل دموعك وقدميك.." يا للشناعة! إنها نفس الاستعارات التي كان الشاعر يكتبها من أجلها!

وأرفقت ليوني بهذه الرسائل كلمة موجزة، قالت فيها أن علاقتها بهوجو لازالت قائمة، وإنها تتمتع من جانب أسرته بنوع من الاحترام، وأن من الخير لجولييت أن تقطع علاقتها بالشاعر، وهي علاقة لم يعد يرغب فيها وإن كان يبقى عليها – لا بدافع الحب والاشتهاء – ولكن بدافع من الاحتمال القائم على التضحية!

ونستطيع بالطبع أن نتصور مدى الألم الذي أحدثته هذه الكلمات في نفس امرأة كرست حياتها بأسرها لحب واحد، لقد كان هذا الدليل القاطع على الخيانة الخفية التي استمرت سبع سنوات سببًا في أن تخرج جولييت من بيتها لتهيم على وجهها طيلة اليوم في شوارع باريس، وهي في حالة تقرب من الجنون،

ثم عادت أخيرًا إلى مسكنها تحت أستار الليل وهي تأمل أن يأتي هوجو لتخبره بعزمها على السفر إلى مدينة برست لتقيم بعيدًا عن شقيقتها.

ولم يحاول هوجو أن ينكر شيئًا، ولكنه توسل إليها كثيرًا كي تسامحه، بل لقد وصل به الأمر إلى حد أن عرض عليها التضحية بليوني. ومع ذلك، فلم يفته أن يطري جمال غريمتها وثقافتها، وإن يشير إلى أن زوجته وأولاده يعاملونها بروح العطف المنطوي على الود والاستلطاف مما أدى إلى إقناع جولييت بخطورة الموقف.

وكانت المسكينة على درجة من الاعتزاز والاعتداد بالنفس، لا تستطيع معها أن تقبل حبا يساق إليها على أنه تضحية، فأرسلت إلى هوجو في اليوم التالي هذه الرسالة: "باسم أكثر الأشياء قداسة عندك، وباسم ألمي العظيم، لا تبذل من نفسك كرمًا زائفًا من أجلي، ولا تمزق قلبك لتبقى على سلامة قلبي.. وحتى أنك لو أقدمت على هذه التضحية فهي لن تخدعني طويلًا، ولن أغفر لنفسي أنني سمحت لها أن تنخدع بتضحيتك على حساب سعادتك..

"يا إلهي! إذا كان مجيئي إلى هذه الدنيا جريمة ارتكبتها على الرغم مني، فقد كفرت عنها بما فيه الكفاية.. فارحمني يا إلهي.. ارحمني ووفر على نفسي مرارة اليوم الذي أرى فيه الرجل الذي أحبه أكثر من حياتي يتألم جراء خطأ أقع فيه، فإني أفضل أن أراه سعيدًا مع امرأة أخرى عن أن يكون معي بائسًا.. وأتوسل إليك يا إلهي أن تهيئ له أن يختار بملء حريته وأن تهبه السعادة الحقيقية، فسوف أباركها حينئذ وأخضع لقضائك دون شكوى أو أنين...".

وبعد تفكير عميق حزين، فاتحت جولييت حبيبها في قطع العلاقة بينهما ولكنه أخذ يستدر عطفها ويشكو لها ما يقاسيه من ألم في حلقة، وقلق على أبنائه الذين تضطهدهم حكومة لويس نابليون، فكتبت إليه جولييت تقول:

"أقدم الشكر لهذه المرأة على أنها لم تلجأ إلى الرحمة في التدليل على خيانتك لي، إن حبك لها طيلة هذه الأعوام السبعة طعنة وجهتها هذه المرأة بكل جرأة إلى قلبي.. حقا أن الطريقة التي لجأت إليها كانت وحشية وساخرة، ولكنها مع ذلك طريقة شريفة. أن هذه المرأة جديرة حقا بأن تكون جلادي، لأن كل ضرباتها كانت صائبة..".

وهكذا نرى أنفسنا أمام موقف نادر طريف، فهاتان امرأتان تحبان رجلًا واحدًا وتكره كل منهما الأخرى، ولكنهما تتبادلان التقدير بدافع من حبهما العميق!

وكان هوجو وجولييت عاشقين رومانتيكيين، ولما كان شاعرنا بارعا في أن يصبح لطيفًا مرحًا وساحرًا حينما يريد، فقد وقعت جولييت في حبائله من جديد ووافقته على فكرة عجيبة، وهي أن يمر ثلاثتهم بفترة اختبار مدتها أربعة أشهر يقرر بعدها هوجو من تلك التي يقع عليها اختياره!

وقد ضمنت هذه الفترة لبطل المأساة شيئًا من الراحة وخلو البال، إذ كان في وسعه أن يرى كلا من المرأتين على هواه في حرية تامة. وكانت ليوني من ناحيتها تطالب بحقوقها كاملة غير منقوصة، أما جولييت فكانت لا تريد أن تأخذ شيئًا إلا عن طريق الحب: "...لست أعترف لنفسي بأي حق عليك، وعندي أن الأعوام التسعة عشر التي أخذتها من حياتي لا تساوي ذرة إذا قيست براحتك وسعادتك ومكانتك..".

وفي ٢٢ سبتمبر عام ١٨٥١ كتبت إليه جولييت تقول:

"لست أفهم حتى الآن السر الذي يدفعك إلى التخلي عن امرأة تعتبرها شابة جميلة ممتازة لا تشك لحظة في حبها لك، وذلك من أجل امرأة مسكينة

ضاع منها نصف محاسنها! لو أنك فعلت ذلك –وأنت الرجل العادل الطيب القلب ذو الروح النبيلة– لقضيت على تلك الشابة التي لها عليك سبعة أعوام من الحقوق وفي يدها الحاضر والمستقبل، كل هذا من أجل مخلوقة بائسة تبكي على ماضيها بدموع من دم، لا حاضر لها ولا مستقبل..".

ونستطيع أن ندرك من الخطاب السابق أن جولييت لابد أنها كانت تحس بقوة موقفها لكي تتحدث بمثل هذه اللهجة. أما بالنسبة لهوجو، فإن تلك الفترة كانت بمثابة عقاب له لا بأس به، وكان برنامجه اليومي يسير وقتئذ على النحو التالي:

في الصباح.. عمل في بيت الأسرة بينما كانت جولييت في مسكنها تعيد له كتابة مسودات رواية "البؤساء"، ثم لا تلبث أن تلحق به عند مدخل كنيسة نوتردام دي لوريت. وبعد الظهر، كانت ترافقه في زياراته للأكاديمية أو للمجلس، ثم العشاء مع آديل وأولاده، أما السهرة فكانت من نصيب ليوني دونيه.

والواقع أن هذا الاختبار العاطفي كان يتطور لصالح جولييت فحبها لهوجو كان له طابع دراماتيكي، ففي الوقت الذي كان لدى جولييت الكثير لتقوله عن ديدين وكلير وغير ذلك عن الذكريات الحزينة، لم يكن لدى ليوني شيء تتحدث عنه من هذا.

وعلى أية حال، فقد حدث قبل اليوم الذي كان مقررًا أن يعطي فيه هوجو إجابته الحاسمة، أن تكفل القدر بهذه الإجابة بطريقة عجيبة عجلت بحل هذا الإشكال.

المسافر المتنكر

في ذلك الوقت، كان فيكتور هوجو يمر بفترة عصيبة من حياته السياسية، فمنذ فبراير عام ١٨٥١ كان قد حدد موقفه السياسي من لويس نابليون ومن حكومته، وأصبح يقول في البرلمان عبارات من هذا القبيل: "إننا لم ننتخب لويس نابليون لأنه نابليون وإنما انتخبنا الرجل الذي نضج بسبب السجن السياسي، وكتب من أجل صالح الطبقات الفقيرة كتبًا رائعة مشهورة: لقد أملنا فيه ولكن خدعنا في آمالنا...".

وكانت حكومة لويس نابليون تحقق مع المسئولين عن جريدة "الأحداث" التي كان يحررها ولداه شارل وفرانسوا فيكتور بالاشتراك مع أوجست فاكيري وصديقهم الصحفي بول موريس، وقضت المحكمة بالسجن تسعة أشهر على كل من فرانسوا جوهو وبول موريس، وستة أشهر على أوجست فاكيري، أما شارل فكان مسجونًا من قبل، كما حكمت بإغلاق الجريدة، ولكنها عادت إلى الظهور من جديد تحت اسم "أحداث الشعب".

وفي ديسمبر من عام ١٨٥١ أصبح الانقلاب ضد لويس نابليون أمرًا لا مفر منه، وكان هوجو يعيش في انتظار هذه اللحظة الحاسمة، وكانت جولييت ترهف السمع للشائعات انتظارًا للحظة التي يحدث فيها الانقلاب، فقد كانت خائفة على حبيبها إلى أقصى حد..

وفي الثاني من ديسمبر، استيقظ هوجو في تمام الثامنة صباحًا، وبعد أن تناول إفطاره أخذ يعمل في غرفته.. وفجأة، دخل عليه خادمه ايزودور، وقد

بدت على وجهه علامات الذعر، وقال:

– سيدي! إن نائبًا من نواب الشعب يطلب مقابلتك..

– من هو؟

– إنه يدعي السيد فرسيني...

فقال هوجر في صوت حاسم النبرات:

– فليتفضل..

وكان السيد فرسيني رجلًا شجاعًا وناصحًا مخلصًا، وما أن دخل على هوجر حتى ابتدره هذا بقوله:

– ماذا حدث؟

فأجابه فرسيني قائلًا:

– إن قصر البوربون حوصر ليلة أمس وقبضت الحكومة على بعض نواب الشعب.

فقاطعه هوجر قائلًا:

– هل هذا كل شيء؟

– كلا.. فالإعلانات التي لصقت على الجدران تعلن الانقلاب..

– وماذا يقول الشعب؟

– إنهم يقرؤون الإعلانات ويهزون أكتافهم، ثم يمضون إلى أعمالهم..

فقال هوجو في لهفة:

– وماذا عن نواب الشعب؟

– إن الـذين صـمموا علـى المقاومـة مـنهم قـرروا أن يجتمعـوا عنـد البارونـه كوينس في بيتها: رقم ٧٠ بشارع بلانش

فصاح هوجو قائلًا في حماس:

– إننا سنقاتل!

وارتدى هوجو ملابسه، ثم أسرع إلى غرفة زوجته وأفهمها الموقف باختصار، فسألته قائلة:

– وماذا قررت أن تفعل؟

– سأقوم بواجبي..

فقالت له آديل، وهي تقبله:

– حسنًا! فلتقم بواجبك..

والواقـع أن آديـل، الـتي كـان اثنـان مـن أبنائهـا في السـجن، لم تكـن تنقصـها الشجاعة في تلك اللحظة، على الرغم من أنها كانت تعلم تمامًا أن الانقلابات نادرًا ما تحترم النساء..

وأسرع هوجو إلى المنزل رقم ٧٠ بشـارع بلانـش، فوجد هناك بعض نـواب الشـعب.. ولم يمـض وقـت طويـل حتى كانـت غرفـة الاسـتقبال تغـص بالمجتمعين. وتكلـم هوجـو أولًا، وكـان مـن رأيـه أن تبـدأ المقاومـة الفعليـة علـى الفـور، ولكـن بعـض النـواب لم يكونـوا مـن هـذا الـرأي، وكـانوا يـرون أن مـن الأفضـل أن يـترك للشعب الوقت الكافي لكي يفهم.

ولما كان هوجو كعادته دائمًا لا يصدق إلا ما يراه بعينيه، فقد أسرع بالخروج إلى الشوارع الرئيسية، وعند بوابة سان مارتان شاهد حشـدًا ضـخمًا من الناس

وعرفه أحد الثوار، ولما سأله عما يجب عمله أجابه هوجو بقوله:

– مزق هذه الإعلانات التي تعلن الانقلاب، وأهتف فليحيا الدستور!

– وإذا أطلقوا علينا النار؟

فقال هوجو في غضب:

– في هذه الحالة يمكنكم أن تستعملوا أسلحتكم..

وفي تلك اللحظة، دوت في أرجاء الميدان صيحة هائلة: "يحيا الدستور!" وعاد هوجو بعد ذلك إلى زملائه بشارع بلانش، وأحاطهم علمًا بما حدث، واقترح عليهم كتابة بيان موجه إلى الشعب، ثم أملى بنفسه البيان التالي:

"إلى الشعب: أن لويس نابليون بونابرت رجل خائن.. لقد حنث بقسمه وخرق الدستور.. أنه خارج على القانون. ليقم الشعب بواجبه.. إن ممثلي الشعب يسيرون في المقدمة"

وانفض الاجتماع، ونزل هوجو إلى الشارع، فلحق به صديقة النائب برودوون، وقال له: "إنني أحذرك كصديق.. إنك تخدع نفسك، فالشعب لن يتحرك" ولكن هوجو أصر على رأيه، وكان يريد أن تبدأ المعركة في اليوم التالي..

كان الليل قد انتصف، فقضي هوجو الليلة عند أحد أصدقائه. وفي الفجر أسرع إلى بيته، وما إن رآه خادمه ايزودور حتى صاح قائلًا في انفعال: "سيدي! لقد حضروا الليلة ليقبضوا عليك.."

وفي اليوم التالي، وهو يوم المتاريس، كان هوجو واقفًا في ميدان الباستيل يخطب في حماس وسط جماعة من ضباط وجنود البوليس

وكان يوم ٤ ديسمبر هو اليوم الفاصل، فقد وقعت مذبحة في باريس،

وأخمدت الثورة في غير رحمة..

كانت جولييت تتبع حبيبها كظله، وسط كل هذه الأحداث الدامية، ولما رأته يقامر برأسه على هذا النحو صاحت فيه قائلة: "إنهم سيقتلونك رميًا بالرصاص!"

لقد كانت هذه المرأة الجميلة ذات الشعر الذي وخطه الشيب على استعداد لأن تلقي بنفسها عند الحاجة لتحول بينه وبين الرصاص. لقد كانت هي الأخرى تقامر بنفسها وسط هذه المذبحة القاسية، وكان هوجو يعرف ذلك ويقدره: "لقد ضحت مدام درورويه بكل شيء من أجلي، وأنا مدين لها بحياتي في معارك ديسمبر ١٨٥١.. إن إخلاصها وشجاعتها يستحقان حقًا كل إعجاب.."

وبعد ذلك بثمانية أعوام، كتب هوجو بخطه على هوامش مسودات ديوانه "أسطورة القرون" التي سيهديها إلى جولييت الكلمة التالية:

"إذا كنت لم يقبض علي أو نجوت من الموت رميًا بالرصاص، وإذا كنت حيًا أرزق حتى هذه الساعة، فأنا مدين بذلك لمدام جولييت درورويه التي عرضت حريتها وحياتها للخطر لتحميني..

"لقد كانت دائمًا توفر لي المخبأ الأمين، وكان إنقاذها إياي يتم بتفان عظيم، وبطولة لا مثيل لها، وأن الله الذي يعلم ذلك سوف يكافئها عليه، لقد كانت تقف على قدميها طول النهار، وتهيم على وجهها في أزقة باريس المظلمة طيلة الليل، لتخدع الحراس، وتضلل الجواسيس، وتمرق في شجاعة فائقة خلال الشوارع الرئيسية وسط دوي الرصاص. وحين كان الأمر يتعلق بإنقاذ حياتي، كانت لا تكف عن البحث حتى تعثر على مكاني بحدس عجيب.. إنها لا تريد

أن نتحدث أبدًا عن هذه الأمور، ولكنني أقول ذلك كي يكون معروفًا للجميع.."

وكان على هوجو أن يختبئ بعد هذا الفشل الذي منيت به الثورة، فاستطاعت جولييت في السادس من ديسمبر أن تجد له ملجأ أمينًا عند أسرة من معارفها تدعى أسرة مونتفربيه رغم أنها كانت أسرة يمينية متطرفة! وكانت جولييت تذهب إليه تحت جنح الظلام لتزوده بالطعام والأخبار .. ومكث هوجو عند أسرة مونتفريية خمسة أيام كان عليه بعدها أن يغادر البلاد، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

ومرة أخرى استطاعت جولييت أن تحصل لهوجو على جواز سفر باسم فيرمان لانفان، وهو صديق مخلص لجولييت قبل أن يستخرج هذا الجواز من حكمدارية البوليس بحجة أعمال له في بلجيكا تتعلق بمطبعة لوتيرو .

وهكذا استطاع فيكتور أن يغادر باريس من محطة الشمال في الحادي عشر من ديسمبر قاصدًا بروكسل تحت اسم "لانفان جاك فيرمان" جامع الحروف المقيم في باريس بشارع دي جونور رقم (٤) وكان المسافر يرتدي قبعة مستديرة والحرملة السوداء التي يرتديها العمال! ومن العجيب أنه استطاع أن ينجو، فهل كان ذلك لأنه أجاد التنكر أم أنهم عرفوا حقيقته ولكنهم أغضوا النظر عنه؟

لا أحد يستطيع أن يقطع برأي في ذلك!

تصفية الماضي

في صبيحة ١٢ ديسمبر ١٨٥١، نزل من القطار في محطة بروكسل العامل "فرمان لانفان"(٤) فاستقبلته على الرصيف مدام لوتيرو زوجة الصحفي الفرنسي المشهور وصديقة جولييت دروويه، وكانت هذه أخطرتها سلفًا بموعد وصول حبيبها الشاعر، ورافقته إلى مساكن مفروشة متواضعة، فذهبت معه أولًا إلى فندق لمبورج، ثم إلى فندق الباب الأخضر فاستقر بهذا الأخير.. وهكذا بدأت فترة المنفى.

وفي الرابع عشر من ديسمبر، كتب هوجو إلى آديل يقول: "إنني هنا أعيش عيشة الرهبان، فعندي سرير في حجم اليد، ومقعدان من القش في غرفة بلا مدفأة.. ويبلغ مجموع نفقاتي في اليوم ثلاثة فرنكات وربع الفرنك ويتضمن ذلك كل شيء...".

ووصلت جولييت قادمة من باريس في نفس اليوم، حاملة معها كل مخطوطات عشيقها المنفي، وكان في انتظارها على المحطة إلى جوار حظيرة الجمرك. وكانت جولييت تعرف حينئذ أنها محاطة بهالة من الود والتقدير نظرًا لإخلاصها المشبع بالبطولة والتضحية. وها هي ذي قد تخلصت من مضايقات الأسرة المعادية لها، فاعتقدت أخيرًا أنها اكتسبت ما تستحق عليه أن يرد إليها اعتبارها فكتبت إليه غداة وصولها تقول: "إذن فصحيح أنني امرأة سعيدة حقًا ومباركة، وأن لي الحق في أن أعيش في ضوء الشمس، شمس الحب والإخلاص..".

(٤) الاسم المستعار الذي سافر به هوجو.

ولكن.. كلا! لم يكن ذلك صحيحًا لسوء حظ جولييت، إذ كان هناك "بروتوكول" للمنفى، ولم يكن فيكتور هوجو يستطيع أن يقيم مع عشيقة له، وهكذا اضطرت إلى أن تذهب لتعيش وحدها في بيت الصحفي لوتير وأسرته بشارع الأمير وهي خاضعة مستسلمة ومجروحة الشعور. وما كادت تستقر هناك حتى كتبت إلى هوجو رسالة تقسم له فيها أنها سوف تحتفظ بالعلاقة التي بينهما في الحدود التي يفرضها عليها مهما كانت ضيقة محدودة، وتقول له أيضًا: "لا تضح بشيء من أجلي إن كان ذلك يترك في نفسك أي ندم أو أسف، فحياتي ومماتي وكل شيء هو ملك لك أنت.. إنني أعدك يا حبيبي الوحيد بألا أترك نفسي أبدًا بعد ذلك أتردي في هذه الشكاوي المرة.. إنني أريد أن أكون لك صديقة حنونًا تثق بها، ومخلصة بملء شجاعة الرجل وكل رعاية الأم، وبلا أدنى بحث عن مصلحة أو نفع.." ترى هل هناك بين الزوجات من تصل تضحيتها لزوجها إلى هذا الحد؟!

وكان على جولييت في الأيام الأولى، أن تكتب ما كان يمليه عليها الشاعر العظيم الذي بدأ وقتئذ كأن غضبًا مقدسًا كان يدفعه ويثير ثائرته، فيحاول أن يعبر عنه وهو مصمم على أن يصبح رجل الواجب والضمير الغاضب من أجل الشعب، الذم يرى لزامًا عليه أن يكتب قصة حقيقية لتلك الأيام المؤلمة، فبدأ يؤلف كتابه "قصة جريمة" منذ اليوم التالي لوصوله إلى بلجيكا مباشرة. وكان المنفيون يتوافدون تباعًا على مدينة بروكسل يحملون معهم آخر الأنباء، وكانت زوجته آديل ترسل إليه الوثائق والكتيبات من باريس، وكان يتصل بها تحت أسماء مستعارة وعلى عناوين أخرى غير عنوانها الحقيقي، كما أن الكسندر دوماس الذي كان كثير التنقل والسفر بين باريس وبروكسل قد أحضر إلى صديقة الشاعر عددًا من الخطابات.

وكان هوجو وقتئذ لا يزال يوصي زوجته وأولاده بالاقتصاد معتقدًا أنه مفلس، إذ لم يكن يخامره شك في أن "السيد بونابرت"(٥) لابد أن يكون قد أدرج اسمه في القائمة الرسمية للمنفيين، وأن أملاكه يمكن أن تصادر ويحجز على أثاث بيته بباريس في أية لحظة.. لكن الأيام ما لبثت أن كذبت ما كان يتوقعه، فقد ترك هوجو وشأنه وقبضت آديل مستحقات زوجها من جمعية المؤلفين ومرتبه في المعهد دون أن تلاقي صعوبة ما، فقد كانت حكومة فرنسا في ذلك الوقت لا تريد أن تثير على نفسها سخرية الناس باضطهادها لشاعر عظيم، بل إن مدام هوجو قد لاقت كل التسهيلات الممكنة لتنقل إلى زوجها سندات حكومية كا يملكها قيمتها ثلاثمائة ألف من الفرنكات كان قد حولها بسرعة، في لباقة رب الأسرة الحذر وحرص الرأسمالي الذكي، إلى أسهم في البنك البلجيكي .

ومع ذلك فلم يمنع هذا كله هوجو من متابعة الكتابة، وأرسل إلى زوجته يقول: إننا فقراء، ويجب علينا أن نمر بكرامة في طريق ضيق قد ينتهي بسرعة ولكنه أيضًا قد يدوم طويلًا.. إنني لا أجد سوى أحذيتي وملابسي القديمة، وهذا أمر بسيط. وأنت تحتملين الحرمان بل الآلام، وذلك أقل بساطة بالنسبة إليك بما أنك زوجة وأم، ولكنك تفعلين ذلك بسعادة وعظمة..".

وابتسم الناس حينذاك لهذا البؤس الذي كان يرقد على كومة من الذهب، كما ابتسموا من "فقر" صاحب الأسهم وغرفته العارية الباردة، ومن الفرنكات الخمسة والعشرين التي كان يمنحها لابنه فرانسوا فيكتور[٦] في الشهر كمصروف

---

[٥] الملك لويس نابليون، وهكذا كان هوجو يشير إليه على الدوام.

[٦] فرانسوا فيكتور، وليوبولدين "ديدين" الابنة الكبرى، و"ديديه" الابنة الصغرى. أما شارل فقد لحق بوالده في بروكسل.

جيب.. فمن قائل أن الشاعر العظيم كان يحن إلى حياة الفقر والحرمان، فكان يطيب له أن يحرم نفسه من حياة الترف والرفاهية التي لم يألفها أيام شبابه ولم يقبلها قبله بعد ذلك أبدًا.. ومن قائل أنه كان يريد أن يعيش على دخله فقط حرصا منه على أن يترك رأس المال سليمًا لا يمس، وذلك كي يضمن بعد وفاته حياة طيبة لزوجته وأولاده، وكان من رأيه أنهم لا يستطيعون كسب حياتهم..

وليس هناك شك في أن هوجو كان لديه ميل غريزي إلى الاقتصاد، وحرص على أن يحتفظ على الدوام بفائض كبير في ميزانيته.. وعندي أن نزواته العاطفية وحرصه على الاحتفاظ بعلاقات غرامية مع نساء كثيرات كان لا يستطيع أن يقاوم سحر جمالهن، كانت تغذي هذا الميل الراسب في أعماق نفسه منذ شبابه الأول.

ففي الوقت الذي كانت فيه آديل تتلقى منه وعظًا دائمًا بالاقتصاد في النفقات، كان عليها أن تستمر في معونتها لليوني دونيه، إذ كتب إليها زوجها من بروكسل يقول: "أفعلي كل ما في وسعك من أجل مدام دونيه.. إنني تأثرت كثيرًا من الكلمات الرقيقة الطيبة حقًا التي تقولينها لي في هذا الشأن". وكذلك كان هوجو من ناحية أخرى يراسل مباشرة مدام بريا التي كانت هي الأخرى تطالب بالمعونة. وهكذا كانت هذه الشقراء "ذات العيون الناعسة" تفلت من جمال الوعظ بالاقتصاد، فكانت تتسلم وحدها من المال من عشيقها المنفي أكثر مما كان يتسلمه أولاده الثلاثة المقيمون مع أمهم في باريس!

والواقع أن آديل كانت تسلك وقتئذ وهي في باريس سلوكًا جديرًا بموقفها كزوجة رجل في المنفي، وكانت تفخر بدور زوجها السياسي أكثر مما كانت تفخر بمجده الأدبي. وكان ثمة بعض أصدقاء مخلصين يزورونها في بيتها ويستفسرون عنها وعنه، ويثنون على شجاعته التي قاد بها الانقلاب ضد

الملكية في الشوارع. وقد كتبت آديل إلى فيكتور هوجو تقول:

"إن الجمهوريين مدهوشون.. إنهم كانوا يقولون: أن هوجو قد سجل تقدما بغير شك، وهو خطيب عظيم، ولكن.. ترى أيكون رجل عمل إذا آن الأوان؟. وهناك بعض نقط كانوا يشكون فيك بشأنها. والآن قد أفحمتهم تمامًا وأنت تحت الاختبار، فإنهم يأسفون لأنهم شكوا فيك..".

وكذلك كانت آديل تجد العزاء في الموقف النبيل، إذا كتبت تقول: "إنني أشعر بحياتي تصبح مظلمة وبأن قلبي يقاسي بعض الشيء بسبب نفيك، ومن جراء سجن أبنائي وأصدقائي، ولكني أشعر بالرضا والاعتزاز بك وبهم.." هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان وجودها حينئذ في باريس يمكنها من أن ترشد زوجها وتحيطه علمًا بتطور الحوادث ومجريات الأمور، فتسجل هكذا لفترة من الوقت تفوقًا لذيذًا طالما تاقت نفسها إليه على هذا الزوج العملاق ذي النفس المسيطرة.

والواقع أن المعلومات التي كانت ترسلها إليه كثيرًا ما كانت تفتقر إلى الدقة أو خاطئة تمامًا.. فتارة كانت تقول له أن العهد سيكون قصير الأمد، وأخرى أن لويس نابليون كان يتأهب لغزو بلجيكا والقبض على المنفيين، كما كانت تقول له: "لن يرتفع صوت واحد في فرنسا، ولن يأتي أحد لمعاونتك...".

كانت آديل تنصح زوجها إذن بأن يلجأ إلى لندن، ولكنه كان يعارض في ذلك بحجة جهله باللغة بالإنجليزية، ويقترح عليها أن ينتقل إلى الجزر الإنجليزية النورماندية في بحر المانش حيث يتكلم السكان على الأقل اللغة الفرنسية..

ولسنا بحاجة أن نقرر أن آديل كانت ثائرة، فقد كانت على علم بوجود جولييت إلى جوار زوجها في بروكسل، ولكنها كانت تعرف كذلك أنه كان صلبًا

لا يلين في هذا الموضوع بالذات، فكتب إليها يقول: "إن ما قاله أبيل لموريس غير منطقي. والمرأة التي يتحدث عنها موجودة هنا حقًا، ولكنها أنقذت حياتي وسوف تعرفين ذلك كله فيما بعد، أو لولاها لقبض علي ولضعت في أكثر الأيام ظلامًا.. إنها تخلص لي منذ عشرين عامًا إخلاصًا تامًا ومطلقًا لم يكذب أبدًا. وفوق هذا، فهي تضحي بكل شيء وتخضع خضوعًا عميقًا لكل شيء.. ولولاها لكنت في هذه الساعة في عداد الموتى أو منفيًا في مكان بعيد، وإني أقول لك هذا كما أقوله أمام الله"

وبعد هذا الخطاب، كفت آديل المسكينة عن لوم زوجها بشأن موقفه من جولييت، وفوق هذا فإنها كانت ترى من واجبها– وقد عينت كاتمة للسر– أن تخفي كثيرًا من الأشياء والأوراق التي كان لا ينبغي إظهارها، منها خطابات خاصة بزوجها كانت في درج "الكمودينو" بغرفته الخاصة، وكان عددها من الكثرة بحيث لقيت آديل مقاومة كبيرة لما فتحته!

ولم تبال آديل بكل تلك البراهين الدالة على عدم الإخلاص وعلى الخيانة الزوجية، بقدر ما أسفت لأن هذا الدرج لم يكن مغلقًا بالمفتاح... وكتبت إلى زوجها تقول له في تسامح: "أرى من واجبي أن أحذرك، إذ ربما استطاع الخدم أن يعثروا على هذه الخطابات وأن يقرأوها لمن يريدون، وأمل مع ذلك ألا يكون هذا قد حدث لأن الدرج لم يكن ظاهرًا تمامًا".

وكان أولادها لا يزالون بالنسبة إليها مجالًا يثير القلق، فآديل "ديديه"، التي كانت قد بلغت وقتئذ الثانية والعشرين، وهي سن كان ينبغي فيها أن تتزوج، قد لجأت إلى الموسيقى وانطوت على نفسها لتغرق آمالها في عالم من الأحلام المؤلمة. وفي هذا كتب فيكتور هوجو إلى زوجته يقول: "قولي لابنتي الصغيرة آديل إنني لا أريد أن يشحب لونها، ولا أن يصيبها الهزال.. فلتهدأ، فإن

المستقبل لذوي الصحة الجيدة.." وكانت ديديه في ذلك الوقت تكتب مذكراتها الخاصة، ولو أن أبلغها قدر له أن يطلع على هذه المذكرات لقرأ فيها ما يلي: "إن مسيو سانت بوف قد عاد إلى التردد على بيتنا، وهو يتحدث فيطيل الحديث، وسوف يبعث إلينا بمقالة مسي ودي سالفاندي عن جرزيه".

أما ابنها شارل البدين، فكان قد لحق بوالده في بروكسل حيث أقاما معًا في غرفتين بالمنزل رقم ٢٧ بالميدان الكبير، تطلان على منظر رائع من المنازل المذهبة ذات الزخارف. وهناك، عكف هوجو على العمل بذلك المزيج من النشاط والمتعة الذي تمدنا به العواطف القوية. وفي شهر مايو، ترك فكرة إنهاء كتابه "تاريخ يوم ٢ ديسمبر" إذ كان ينقصه الكثير من المعلومات، وقرر أن ينشر على وجه الاستعجال كتاب هجاء صغير بعنوان: "نابليون الصغير"كتبه بسرعة كبيرة فجأة ارتجالًا ثائرًا واتهامًا على الطريقة اللاتينية القديمة، يجمع بين عنف أسلوب "شيشرون" وقوة "تاكيتوس" وشاعرية "جوفينال"، وتتراوح لهجته بين زجر الكتب المقدسة وفكاهة "سويفت" المرعبة.

وأصبح من الواضح بعد نشر كتاب "نابليون الصغير" في بلجيكا أن هناك خطرًا على أسرة هوجو وممتلكاته التي تركها في فرنسا، خاصة أن حكومتها كانت تعلن وقتئذ عن إصدار قانون بشأن جرائم الصحافة والنشر التي يرتكبها الفرنسيون في الخارج يتضمن عقوبة الغرامة والمصادرة، كما كان هناك من ناحية أخرى قانون في بلجيكا يحرم مهاجمة رئيس دولة صديقة. ولهذا، استقر رأي هوجو على استدعاء كل أفراد أسرته للإقامة معه، أما في بروكسل إذا قبل البلجيكيون إيواءه بعد أن نشر هذا الكتاب العنيف، وأما في جزيرة جزري في بحر المانش، مفكرًا أولًا في أن ينقل إليها أثاث منزله الموجود في باريس، إذ كان شديد التعلق بالتحف والنفائس التي كان قد انتقاها بشغف وعناية من عند تجار

التحف والعاديات، ولكن آديل رأت أن هذه الفكرة غير معقولة، وكتبت تقول له في هذا الشأن: "ولماذا تقيم في الخارج بصفة دائمة؟ إن علينا أن نستطيع أن نرفع قدمنا من ساعة إلى أخرى، فها هي ذي الأحداث تضطرنا إلى الفرار من مأوانا مرتين، ويحتمل كثيرًا أن تطردنا مرة ثالثة. ولو أننا نقلنا أثاث بيتنا إلى جزيرة جرزي، لتكبدنا في تغليفه نفقات باهظة.. ولعلك تذكر أنه كان لدينا ما يحمل ثمانية عشر عربة لنقل متاعنا، وأنه قد تضاعف منذ ذلك الحين".

ونصحت آديل زوجها بالتنازل عن عقد إيجار بيتها بشارع دي لاتور دوفرني في باريس، وبيع الأثاث بالمزاد العلني بما في ذلك "الأثاث القوطي البديع" والأطقم والتحف والمكتبة وما تحتويه من كتب ومن بينها كتب "رونسار" وحتى ذكرى سانت بوف لم تنج هي الأخرى من هذه الرغبة العارمة في تصفية الماضي بحلوه ومره!

وهكذا كلفت آديل بوصفها ربة العائلة مؤقتًا بإعداد الترتيبات المتعلقة ببيع الأثاث ونشر الإعلانات اللازمة في الصحف ثم جمع كل النقد السائل. وكان عليها بعد ذلك أن تضع نفسها مع أولادها في مكان أمين، قبل أن يلقي زوجها المتآمر قنبلته فينشر في بلجيكا كتابه "نابليون الصغير" الذي ارتجله في مدى شهر واحد، وهي لحظة كان ينتظرها، في صبر نافد وشغف عظيم.

وتم كل شيء كما أراد هوجو.. وعلى الرغم من أن بيع المتاع بالمزاد العلني، كان يمكن أن يكون بالنسبة لهوجو مصدر ألم عميق، فقد جعلت منه السعادة التي كانت تثيرها التضحية العلنية في نفسه شيئًا مقدسًا، بينما كانت آديل تشتق لذة كبرى من خلال الشعور بالانتقام، وقد استطاعت أخيرًا أن تتهكم عليه بعض الشيء، وأن تبتسم منتصرة وهي تبرهن له على أن التمسك بالاقتصاد التام أمر له مساوئه.

والواقع أن آديل طالما نظرت في ازدراء إلى كل تلك التحف "والأشياء القديمة" التي كان هوجو يحرص على شرائها من شارع دي لاب وهو في رفقة جولييت. ومع ذلك، فقد بلغت حصيلة البيع خمسة عشر ألفا من الفرنكات[٧]، إذ تهافت الهواة والأصدقاء يوم البيع[٨] بأي ثمن على اقتناء الأشياء التي كانت تزين مكتب الشاعر العظيم.

وفي مساء اليوم نفسه، توجه الكاتب الصحفي جول جانان تحت سماء مقمرة صافية إلى بيت فيكتور هوجو بشارع دى لاتور دوفرني، وكتب إليه في اليوم التالي يقول: "كان قد خيم حول بيتك صمت كبير! وكانت نجمة هي نجمتك تبعث ضوءها العميق على الحديقة الصغيرة التي كنت تنزل إليها أثناء الليل.. وكان بالنافذة المفتوحة ظل شبح أبيض أو صورة ملتفة ساكنة كانت تتأمل في صمت وهدوء المدينة التي كان يجب أن تغادرها في اليوم التالي! وأعتقد تمامًا أنها كانت هي ابنتك التي تحلم هكذا. وفي النافذة المغلقة، كانت هناك زوجتك تتبادل الحديث مع ابنك بصوت خفيض، وكان حديثهما هادئًا وحزينًا. كان حديثًا لا يمكن سماعه، ولكن كان من السهل فهمه. لقد كانا يودعان هذا العش اللطيف الذي كان يضم مجد الأب. آه! من ذا الذي كان يستطيع أن يقول لنا أيام المعارك الأدبية العظيمة حين كنا نحيي مدام هوجو كأنها ملكة.. من ذا الذي كان يستطيع أن يقول لنا أننا سنفقدها وأنها سترحل إلى المنفى؟".

ذلك أن القرار كان قد اتخذ، وأرسل هوجو في اليوم الخامس والعشرين من يوليو يتعجل زوجته أن ترحل مباشرة إلى بلدة سانت هيليه في جزيرة جرزي،

---

[٧] أي ما يعادل نحو ثلاثة ملايين من الفرنكات بحسب النقد الفرنسي عام ١٩٥٣ قبل خفض قيمة الفرنك.

[٨] كان ذلك في يوم الأربعاء التاسع من يونيو عام ١٨٥٢.

ورحل هو نفسه إلى هناك في يوم أول أغسطس ومعه ابنه شارل.. إذ لم يشأ أن يحمل حكومة بلجيكا عبء كتابه "نابليون الصغير"، فسبق برحيله قانون "فايدر" الذي كان سيطرد بمقتضاه من الأراضي البلجيكية.

ولم تكن جولييت ترى حبيبها في بروكسل أكثر مما كانت تراه في باريس، فكانت تعيش على مقربة منه قانعة بأن ترسل إليه خادمتها سوزان حاملة أطباقًا لذيذة إلى مسكنه بالميدان الكبير. لقد كانت تعبد ذكريات الأيام الجميلة، ولكنها أصبحت تسائل نفسها الآن قائلة: "ما جدوى المحافظة على تقاليد الحب الأول ما دام لم يعد ثمة حب أول؟ يا للآسف! إذ لم يعد هناك سوى الواجبات والشفقة واحترام الإنسان؟.. أليس من الأفضل إذن أن أترك كل تلك الأمور العاطفية الصبيانية التي لم تعد تلائم أبدًا شعري الأبيض؟ إن هناك أنواعًا من مساحيق الزينة تصبح غير ملائمة بعد سن معينة...".

وها هي ذي تصبح في سن السادسة والأربعين قبل الأوان، إذ أخذ جسمها يسمن ويثقل وأصبحت تشعر بأنه في تقهقر مستمر، فكانت تبذل جهدًا مؤثرًا في سبيل التنازل عن نداء العاطفة ومقاومة مطالب البدن. وكان هوجو من ناحية أخرى يضحى بها في قسوة لكي يظهر بالمظهر الذي يليق بعظيم في المنفى فكان يمنعها من أن تذهب لتزوره في مسكنه في الوقت الذي كان يستقبل فيه أفواجًا من الفضوليين والذين لا عمل لهم، ومن غير هؤلاء وهؤلاء ممن لا يعنيهم أمره، فكتبت إليه تقول: "إنك تلاحظ حتى ما في إنكارك لشخصي من القسوة والظلم، فأنت تعني بكرامتك أكثر مما ينبغي على حساب قلبي المسكين!".

والواقع أن عشيقها كان وهو في بروكسل "يضاعف من طهارته"، وكان يزداد على الأيام إمعانًا في هذا الاعتدال الذي كان قد درج عليه معها سنوات.. ولكن، ترى هل كان يلزم نفس هذا الاعتدال أيضًا مع النساء اللاتي

يصغرها في السن؟

لقد كان لدى جولييت من الأسباب ما يدفعها إلى الشك في ذلك، فأرسلت إليه خطابًا تقول فيه: "لتكن لديك الشجاعة مرة واحدة فتعلن خيانتك الجسمية والمعنوية.. إنني أذكر الوقت الذي كنت لا تحب فيه سواي، كما أذكر أيضًا ذلك اليوم الذي اتخذت فيه من صحتك عذرًا لانفصال جسدي.. لقد كنت تعبد امرأة أخرى.." وأثناء فترات الانتظار الطويلة، كانت العشيقة الخادمة تنسخ قصة يوم ٢ ديسمبر، وترتق جوارب "رجلها الصغير"، وتنظر طويلًا إلى السحب وهي تمر في السماء!

ومهما يكن من أمر، فقد جنبها على الأقل مرارة الإذلال بأن أعفاها من رؤية صديقته ليوني دونيه التي أرادت أن تلحق به في بروكسل في يناير عام ١٨٥٢، إذ كتب إلى زوجته وحليفته يقول: "إنها تنوي السفر يوم ٢٤ يناير! فاذهبي للقائها على الفور واحمليها على أن تلزم جانب التعقل، فأي إجراء طائش في الوقت الحاضر قد يؤدي إلى أوخم العواقب.. إن كل العيون مثبتة علي، وأنا أعيش أمام الجمهور عيشة تقشف قوامها العمل والحرمان. ومن هنا كان الاحترام العام الذي أقابل به حتى في الشوارع.. ولا ينبغي أن يتزحزح أي شيء في هذا الموقف. فقولي لها هذا كله، وعامليها في حنان.. لا تريها هذا بل أحرقيه في الحال، وقولي لها إنني سأكتب إليها على العنوان الذي أعطته لي.. احترسي من الأعمال الطائشة..".

وتكفلت آديل بهذا كله وبكثير غيره.. وتكفلت بكل شيء وقد أخذ فخرها يزداد بدورها هذا الذي تضخم فجأة وردت على زوجها لتقول له: "كن مطمئنًا تمامًا فإني ذاهبة إلى مدام دونيه في الحال، وأنا أكفل لك أنها لن تسافر.. إنني ساهرة يا صديقي الكبير العزيز فاعمل في سلام وكن هادئًا".

عظيم في المنفى

في أغسطس من عام ١٨٥٢، وصل إلى جزيرة جرزى أول فوج من المغتربين مؤلف من مدام فيكتور هوجو وابنتها آديل (ديديه) وأوجيست فاكيري، فحسبوا لأول وهلة أن بلدة سانت هيلييه التي تحرقها الشمس تشبه إلى حد كبير جزيرة سانت هيلانة. وبعد ذلك بيومين، لحق بهم فيكتور هوجو وابنه شارل في "فندق التفاحة الذهبية"، وكان في استقبالهما بالميناء عدد كبير من المنفيين راحوا يحيون الكاتب الكبير في حرارة وحماس، وقد اختلطوا بسكان المدينة..

ولأول مرة منذ ثمانية أشهر، وقعت عينا آديل على زوجها المنفى وهو ينزل من السفينة ومعه ابنه شارل، فراعهما منظر الاثنين، فقد سمن فيكتور هوجو كثيرًا، وكذلك ابنها الحبيب، وتغير مظهره فأصبح يهمل عمدًا في هندامه، وتحول رجل المجتمع الأنيق المصقول المصفف الشعر إلى رجل عمل خشن أقرب إلى الصناع منه إلى عظماء الرجال، وكان الحزن يمتزج بالصرامة والوقار في قسمات وجهه المعذب المكدود، ويلمع في عينيه المفتوحتين بريق لم تر فيهما مثله من قبل.. كان يجعله كإنسان تمر به رؤيا، ولكن لم تنقض لحظات حتى ذهبت عنها الدهشة وهدأ روعها وقد لاحظت أن زوجها قد عاد بسرعة إلى مرحه ومنطقه الواقعي.

وبدت الجزيرة لأفراد الأسرة أقل وحشة، حين طوفوا بأرجائها وعرفوا معالمها، وكانت تشبه حدية كبيرة شديدة الخضرة انتشرت عليها بيوت نظيفة يترامى البحر من تحت سفحها على مدى البصر.

وانقسم الرأي على الفور في محيط الأسرة بشأن اختيار المسكن، فكان من رأي الابنة ديديه (آديل الصغيرة) أن تظل قريبة من بلدة سانت هيلييه، بينما كان شقيقها شارل يتمنى أن يعيش في مكان مرتفع– أما هوجو الأب فقد ظل متمسكًا بفكرة الإقامة على شاطئ البحر. وانتصر رأيه من النهاية، فاستأجر بيتًا منعزلًا تمامًا على الشاطئ يدعى "البيت ذو الشرفة البحرية" وهو بناء مكعب ثقيل ذو زوايا قائمة ويبدو شكله كالقبر

أما جولييت دروويه، فقد وصلت من بلجيكا على سفينة أخرى واستأجرت لنفسها شقة صغيرة في بيت خشبي يقال له "نلسن هول" لأن هذا كان هو العرف المتبع، ولأن آديل قد أبدت رغبتها في ذلك. وفي اليوم العاشر من أغسطس كتبت إلى هوجو تقول: "سوف نرى ما إذا كان منظر المحيط سيثير عندك الوحي أكثر من الميدان الكبير في بروكسل، وسوف نرى أيضًا ما إذا كنت ستحتفل بمسكني الخشبي أكثر مما كنت تفعل بغرفتي في ممر سان هوبير[٩]".

وهكذا استقرت هذه الجماعة الصغيرة في جزيرة المنفى حيث كانت حياتها مرتبطة بعقل وقلم. ولقد كان هوجو يشعر منذ اللحظة التي وطأت قدماه فيها أرض الجزيرة أنه كان عليه أن ينشر، ولكن.. ماذا ينشر؟ ديوان التأملات، وهو عبارة عن مجموعه من قصائد حب وأحزان تدور موضوعاتها حول جولييت وابنته الميتة "ديدين"؟ ترى أكان الوقت مواتيًا في خضم هذا الصراع السياسي لأن يقدم للجمهور أشعارًا تدور حول شخصه؟

كان من رأي هوجو أن الوقت غير ملائم، وكذلك قرر الناشر هتزل لما أراد

---

[٩] في بروكسل حيث أقامت مع أسرة صديقتها مدام لوتيرو زوجة الصحفي المشهور.

الشاعر أن يسترشد برأيه. ومن ثم فقد استقر رأيه على أن يتمسك في أيام الخصومة والغضب بنفس القريحة التي أملت عليه كتاب "نابليون الصغير" الذي كان يدخل فرنسا خلسة على شكل ملازم مطبوعة على ورق خفيف للغاية، فقوبل في كل مكان بحماس منقطع النظير، وطبعت منه مليون نسخة في كل أنحاء العالم، وترجم إلى الإنجليزية والأسبانية.

وكان على هوجو أن يواصل الكتابة، ولكن بالشعر في هذه المرة على عادته في أكثر مؤلفاته، فكان هذا الشاعر البليغ الثائر يرى آناء الليل وأطراف النهار وهو يهيم كشبح مأخوذ على شواطئ جرزي وفوق الربي والصخور. وما إن حل شهر ديسمبر من عام ١٨٥٢ حتى كان يمسك في يده بكتاب فريد من نوعه في الأدب الفرنسي هو ديوان "العقاب" الذي فرغ منه ورقة ورقة في الأسابيع الأولى من عام ١٨٥٣، وهو ديوان يذكرنا بكتاب "المآسي" للشاعر دوبينييه، ولكن هوجو قد تفوق عليه بقوة ضرباته وجمال لغته وجمال قوافيه، كما تفوق عليه بعظمة السخرية في أسلوبه: وخاصة بلهجة الملحمة التي صاغ بها الكتاب، وفيه يقول الشاعر أنه واثق من أن الحق هو الذي سينتصر في النهاية، وأن ما يلمحه وهو نائم على شاطئ المحيط كان "ملاك الحرية":

"آه! انظروا! إن الليل ينقشع"

"عن العالم الذي يتحرر.."

"والأمم التي بلغت رشدها.."

"تفتح في زرقة السماء الجامدة.."

"أجنحة السلام الشاسعة!"

"ألا أيها الرداء الأبيض بعد العربدة!.."

"يا للنصر بعد الآلام!.."

"إن العمل يطنطن في الاكوار.."

"وتضحك السماء.. والطيور تفرد"

"في شجر الشوك الذي ازدهر بالورود"

"هناك نقطة تلمع في آخر السماوات"

"انظروا.. إنها تكبر وتسطع"

"إنك لست إلى الآن سوى الشرر"

"وغدًا تصبحين الشمس.."

"وفي انتظار ذلك يجب علي أن أصمد.."

"إني أقبل المنفى المر، حتى ولو لم تكن له نهاية.."

"دون أن أحاول أن أعرف، ودون أن ألاحظ.."

"إذا كان شخص آخر قد انحنى، وكنا نظن أنه أكثر ثباتًا.."

"فإذا كان الكثيرون يرحلون ممن كان ينبغي أن يمكثوا.."

"وإذا لم نعد سوى ألف فإنني من بينهم.. وحتى إذا لم يكونوا"

"سوى مائة فلا زلت أتحدى سيللًا"

"وأن بقى عشرة، فسوف أكون عاشرهم"

"فإذا لم يبق سوى رجل واحد فسوف يكون أنا"

وهكذا كان فيكتور هوجو يصهر الغضب والضغينة ويصبهما في أبيات منظومة وهو مستند إلى صخور الشاطئ يتأمل البحر طويلًا بنظرات شاردة. ولم

يبلغ إنتاجه من الروعة مثلما كان عليه في تلك الفترة من حياته، ولا عمل أبدًا بمثل هذه الهمة التي لا تفتر، والقريحة النفاذة الصافية. ولهذا فإن الوقت كان يمر بسرعة بالنسبة إليه، وأما بالنسبة لأفراد أسرته فلم يكن المنفى يمدهم بمثل هذه القوة.

فآديل الزوجة والأم، التي حرمت من مملكتها الباريسية، تقبل في غير حماس أو سرور على تدبير شئون البيت التي "لا مجد فيها"، فأخذت تحاول أن تكتب كتابًا بعنوان: "فيكتور هوجو كما يعرفه شخص شاهد حياته" ولم تكن آديل قد لمعت ككاتبة منذ أن كتبت أيام خطوبتها رسائل الحب إلى خطيبها الشاب، ولكنها قد سجلت الآن بعض التقدم من جراء احتكاكها برجال الأدب والشعراء والندوات التي كانت تحضرها في المحافل والصالونات. ثم إن زوجها كان هناك، إلى جوارها، وهو نموذج يحتذي وحجة في هذا الميدان. ومع ذلك، فقد لاقت آديل في البدء صعوبة كبيرة، وهي تعبر عن ذلك حين تقول: إن ما اكتبه عن زوجي يسير ببطء، فأنا لست كاتبة.. والمذكرات ليست شيئًا، ولكن حينما يكون الأمر متعلقًا بالتحرير كما يقولون فإن فكري يدور كثيرًا..".

أما شارل هوجو وأجيست فاكيري، وكلاهما كان شاعرًا مرتجلًا وكثير الكلام طلق اللسان، فقد كانا يلمعان أمام مجموعة محدودة العدد من المستمعين، وكانت هواية التصوير الفوتغرافي تستهلك من وقتهما قدرًا لا بأس به، والتقطت آلاتهما البدائية "للوالد العظيم" عشرات من الصور كان لها الفضل في أن تثبت لنا مظهر الشاعر في ذلك الوقت، وأن تنقله إلينا عبر السنين، وهو– على حد تعبير بول كلوديل– "مظهر محزن يفرض نفسه على الآخرين، ولكن تكمن من ورائه روح تتألم".

وأما آديل الصغيرة (ديديه) التي كانت وقتئذ فتاة في السادسة والعشرين،

فقد كانت تحتمل حياة المنفى في مشقة كبيرة، وتضم بين جنبيها نفسًا معذبة، فكانت أكثر الوقت مكتئبة شاردة النظر، وكانت تدفن أحزانها في الموسيقى من وقت لآخر أو تحلم بحب مستحيل.

لم يبق أمامنا من الجماعة الصغيرة إلا جولييت، وكان وجودها على مقربة من الأسرة يزيدها بؤسًا ويشقيها إلى حد لم تعرفه من قبل.. إنها كانت تلمح حبيبها من النافذة، ولكن كان محرمًا عليها أن تكلمه حين يكون مع زوجته. وكانت هي من ناحية أخرى لا تفكر في ذلك، وكان يمنعها من أن تفعله وخز ضمير لا تستطيع أن تتغلب عليه.. ولكنها لما كانت ترى مدام فيكتور هوجو تمر مرتدية ثوبًا من الحرير الجميل ومتأبطة ذراع زوجها، فإنها كانت تتألم وهي تقارن بين هذا الترف وبين ثيابها المهلهلة. وكانت جولييت لا تكره جزيرة جرزي لأنها نشأت في مقاطعة بريتاني المطلة على البحر فكانت تجد فيها مراتع طفولتها، ولكنها كانت لا تحب أن تظل دائمًا وحدها هكذا في "نلسون هول" بين همومها ونسخ مخطوطات عشيقها الأديب. وقد كتبت إليه وقتئذ تقول: "تستطيع أن تخرج معي لو أنك أردت ذلك بدلًا من أن تقف إلى ما لا نهاية أمام آلة التصوير..".

وكانت أيام جرزي بالنسبة لفيكتور هوجو أيام تأمل وعمل وفترة راحة وسعادة، فلئن كان سوء الحظ قد انتزع الشاعر من محيطه ووطنه، فقد أتاح له فرصة نادرة عاد فيها إلى نفسه، فلم تعد هناك جلسات أكاديمية ولا مناقشات في الجمعيات، ولا نساء يطمعن في وقته وفي قواه. والواقع أن هوجو لم يسبق له أن كتب قط بمثل هذه الحرية، وبنفس تلك القوة والسهولة، فأضاف في غير جهد وهو في جزيرة جرزي جزءًا آخر إلى ديوانه "التأملات" الذي كانت قصائده الرائعة الموجهة إلى ابنته ليوبولدين وإلى جولييت دروويه تختلط بقصائد

أخرى فلسفية صب فيها مذهبه في الحياة. وكتب في الفترة ما بين ١٨٥٣– ١٨٥٦ أهم القصائد اللاهوتية في التأملات والقصيدتين الكبيرتين: "نهاية الشيطان"، و"الله"، وكان من الممكن أن تخرج إلى الوجود تحف أخرى نادرة لولا أن وقع حادث جلل أوقف إنتاج الشاعر الأديب فترة من الوقت وأدى إلى أبعاده عن الجزيرة.

في جزيرة جيرنيزي

لسنا بحاجة إلى أن نقرر أن ظروف اللاجئ السياسي تزداد صعوبة إذا حدث تقارب بين بلده الأصلي والبلد الذي ينفي إليه..

والواقع أن حكومة انجلترا، كانت تقبل وجود هوجو في جزيرة جرزي، ولكنها كانت لا تتبناه. ولم تحب السلطات الإنجليزية هذه المجموعة الصغيرة من الفرنسيين الثرثارين، وهذا الشاعر الذي كان ينتقل بين زوجته وعشيقته، وتلك النصائح التي كان يوجهها من منزل الشرفة البحرية إلى لورد بالمرستون كأنها وعظ كبار القساوسة.

وفي مجلس العموم البريطاني، كان سير روبرت بيل قد لام فيكتور هوجو في عام ١٨٥٤ في كلمات لا تنطوي على مراعاة أو احترام، فقال: "إن هذا الشخص لديه ضرب من الخلاف الشخصي مع الشخصية الممتازة التي وقع عليها اختيار الشعب الفرنسي لتكون ملكًا له..".

وفي عام ١٨٥٥ أصبح الخلاف حادًا، إذ توثقت علاقات المودة والصداقة بين ملكة انجلترا وإمبراطور فرنسا المتحدين ضد روسيا، وانتهت حرب القرم بزيارة قام ها نابليون الثالث للملكة فيكتوريا في لندن– وكان الاستقبال في دوفر جميلًا حسن التنظيم إلا أن خطابا من الكاتب المنفى موجه إلى الإمبراطور، كان ا يستطيع بسهولة حين وصوله إلى دوفر أن يراه ملصقًا على الجدران:

من فيكتور هوجو إلى لويس بونابرت: "ماذا جئت تفعل هنا؟ على من

تحقد؟ ومن جئت لتسبب؟ أهي انجلترا في شعبها أم فرنسا فيمن نفى منها؟... دع الحرية في سلام وأترك المنفى هادئًا...".

ولما ردت الملكة فيكتوريا الزيارة بعد ذلك للإمبراطور، هاجمها فليكس بيات بطريقة غير حاذقة، فوجه إليها خطابًا مفتوحًا نشرته صحيفة "الإنسان" قال فيه: "لقد ضحيت بكل شيء: كرامة الملكة، وتحفظ المرأة، وغرور الارستقراطية، وعواطفك كإنجليزية، وبالمكانة، والجنس، والأنوثة.. كل شيء حتى الحياة، في سبيل حب هذا الحليف..".

وقد طرد شارل ريبيرول رئيس تحرير الجريدة، والكولونيل بيانسيني مدير الإدارة، وثالث يدعى تاماس ويعمل موزعًا بسيطًا، بأمر من الحكومة الإنجليزية.

ولم يحبذ فيكتور هوجو الخطاب الموجه إلى الملكة، ورأى أنه ينطوي على فساد قدمه المنفيون بالجزيرة إلى السلطات ذات الشأن

وفي يوم ٢٧ أكتوبر، زار نائب حاكم جزيرة جرزي فيكتور هوجو في بيته، وقال له في أدب جم:

– إنك ممنوع يا سيدي من الإقامة في الجزيرة أنت وولديك شارل وفرانسوا فيكتور بمقتضى قرار صادر من التاج، وقد حدد لكم القرار مهلة تنتهي في يوم ٤ نوفمبر كي تستعدوا للرحيل..

فقال له هوجو:

– حسنًا يا سيدي نائب الحاكم.. تستطيع أن تنسحب لتخبر رئيسك الحاكم العام بأننا سننفذ هذا القرار، وسيخبر به الحاكم العام رئيسة الحكومة البريطانية التي ستخبر به بدورها رئيسها السيد بونابرت!

وعبر كثير من الأحرار الإنجليز عن سخطهم من هذا الإجراء في مظاهرات

عديـدة، ولكـن أسـرة هوجـو اضـطرت إلى مغـادرة الجزيـرة لتقـيم في جزيـرة جيرنيزي.. وكان رحيلها على دفعات.. فقد رحل فيكتور هوجو أولًا يوم ٣١ أكتوبر، وبصحبته فرانسوا فيكتور وجولييت وخادمتها الخاصة سوزان الطيبة القلب. وبعد ذلك بيومين لحق بهم شارل هوجو، ثم جاء دور آديل الأم وآديل الابنة "ديديه" وأوجيست فاكيري الذين لم يكن يشملهم أمر الطرد، وكان عليهم أن يتكلفوا بنقل الأثاث. وقد غادر هؤلاء الجزيرة فيما بعد، وهم يحملون من بين متاعهم حقيبة كبيرة ثقيلة في قارب صغير كانت تتلقفه الأمواج في بحر هائج فتثير في نفوسهم أشد القلق، إذ كانت تضم مخطوطات كتبه: "التأملات"، و"البؤساء"، و"نهاية الشيطان"، و"الله"، و"أغاني الشوارع والغابات"، ولم يحدث قط من قبل إن كانت مثل هذه المؤلفات الخالدة عرضة هكذا للضياع

ولم يكن هوجو يملك وقت نزوله بجزيرة جيرنيزي سوى القليل من المال، عدا الاحتياطي المودع في بلجيكا الذي كان لا يريد أن تمسه يداه.. ذلك أنه لم يقبض شيئًا من حق التأليف عن كتاب "نابليون الصغير" وديوان "العقاب"، فهما من كتب الكفاح، وقد بيعا سرًا لصالح الذين تولوا توزيعها فقط. واستأجر الكاتب منزلًا يقيم فيه لقاء إيجار شهري خوفًا من أن يطرد من جديد "إذا ما أصر السيد بونابرت على ذلك" وكان البيت يطل على منظر رائع وقد كتبت آديل تقول: "إننا نرى من نوافذنا كل جزر بحر المانش والميناء الجاثم تحت أقدامنا. وفي المساء، تحت ضوء القمر، يكون ذلك مما يثير الأحلام..".

واستأنف رب الأسرة العمل في الحال، إذ لم يكن بحاجة دائمًا لغير منضدة وورق وزجاجة من المداد ليغرق في تدوين خواطره إلى أذنيه. أما الآخرون الذين كان يعظهم بمضاعفة الاقتصاد، على الدوام، فقد كانت الحال بالنسبة إليهم مختلفة كل الاختلاف!

وجاءت معجزة ديوان "التأملات" لتنقذ الموقف في تلك الأيام، إذ كان هوجو يرتب أدراج مكتبه ذات صباح حين وقعت عيناه على نحو أحد عشر بيتًا تقريبًا من الشعر كتب بعضها منذ زمن بعيد أيام السعادة التي ولت، وبعضها الآخر من إنتاج الحاضر ووحي السعادة وهو عبارة من أشعار الذكرى والتأمل. وكان الناشر هتزيل– "ذلك الزميل العزيز في المنفى" وكان منفيًا مثله– يتمنى أن يتكفل بالنشر. فأراد هوجو أن يضرب ضربة كبرى وأن ينشر الكل في جزئين، إذا كان يريد أن يصرع أعداءه بعدد ضخم من التحف الأدبية النادرة.

ونجح ديوان التأملات نجاحًا غير منتظر، لا بفضل النقاد.. إذ بقي سانت بوف، ولامارتين صامتين لا يعلقان عليه بكلمة واحدة، ولكن يرجع نجاحه إلى نفسه، فإن جميع الذين يحبون الشعر قد تعرفوا في هذا الديوان على أجمل الأشعار التي صيغت باللغة الفرنسية.

واشترى هوجو في العاشر من شهر مايو بالعشرين ألف فرنك التي قبضها من هتزيل، لقاء حق التأليف، بيتًا كبيرًا يدعى "منزل المدينة العالية" ودفع ثمنه كله فورًا من كتاب "التأملات".. إذ كان تواقًا إلى أن يصبح مالكًا من بين الملاك في الجزيرة يدفع "الأموال المقررة للتاج"، ومن ثم يصبح من غير الممكن طرده كما كان يقضي القانون المحلي. وكان هوجو وقتئذ قليل الأمل في أن تحدث تغيرات في فرنسا، إذ كان يرى أن الناس هناك تشغلهم الأعمال أكثر مما تشغلهم الحريات، ولكن.. ترى أكان يريد حقًا أن يغادر جيرنيزي؟

إننا لنتردد قليلًا قبل أن نجيب بنعم عن هذا السؤال، فقد كانت صحة الكاتب هناك مدهشة، وكان ينتج إنتاجًا لم يسبق له نظير. أما بالنسبة لزوجته ولابنتها ديديه بصفة خاصة، فقد كانت تلك الإقامة الدائمة بالجزيرة مصدرًا دائمًا للحزن والاكتئاب. وكانت آديل تدرك بالطبع أن كرامة زوجها تأبى عليه

أن يعود إلى فرنسا ما دام عهد الإمبراطورية قائمًا، ولكن ألم يكن هناك مكان آخر للمنفى أقل وحشة، ويستطيعون فيه أن يستمتعوا بعلاقات لطيفة مع الناس، ويتاح لهم أخيرًا أن يجدوا زوجًا لديديه؟

والواقع أن الإرهاق الصامت الذي كانت تعيش فيه هذه الفتاة، كان يؤرق بال الأم.. ولكنها لم تكن تجرؤ مع ذلك على أن تصارح زوجها بمخاوفها لأنها كانت تعرف تمامًا أنه يواجه دائمًا مثل هذه الأمور بحجج رنانة لا تقبل الجدل. ولهذا فكرت الأم المسكينة في أن تفاتحه كتابة في هذا الشأن، فكتبت إليه تقول: "إن الحياة التي تحياها هذه الابنة يمكن أن تستمر بعض الوقت، ولكن إذا دام المنفى زمنًا طويلًا فإن هذه الحياة تصبح مستحيلة.. إنني ألفت نظرك إلى ذلك وأنا ساهرة على ابنتي، وأرى أن حالة ركودها وتوتر أعصابها قد عادت إليها، وأني مصممة على أن أؤدي ما سيمليه على الواجب كي أحميها في المستقبل.. إن حياتكم أنتم الثلاثة[١٠] ليست فارغة، وابنتي وحدها هي التي تفقد حياتها، وهي عاجزة بلا سلاح.. ومن واجبي أن أضحي لأرعاها. إن صنع السجاد وزرع حديقة صغيرة ليسا طعامًا معنويًا كافيًا لفتاة في السادسة والعشرين..".

وصدم هوجو من جراء خطاب زوجته، فأفهمها أن شعوره قد جرح، واتهم هذه "الأسيرة" الشابة بالأنانية والجحود، فكتبت إليه زوجته تقول: "لقد قلت لي هذا الصباح أن ابنتك لا تحب إلا نفسها، ولم أشأ أن أعلق على هذه الكلمة.. إن آديل قد منحتك شبابها دون أن تشكو، ودون أن تطلب منك اعترافًا بالجميل، وهأنتذا تجد أنها أنانية!.. فمن ذا الذي يعرف ما قاسته، وما

---

[١٠] تعني زوجها هوجو وابنيه شارل وفرانسوا فيكتور.

سوف تقاسيه، حين ترى مستقبلها وهو يفلت منها، وحين تتطلع إلى المستقبل فترى أن الغد سيكون مثل اليوم؟.. كل شيء هنا يعتبر ضارًا بآديل.. ولما كنت أشعر بما يجب نحوها، وبما يمكن إصلاحه، فإنني أضحي كلية في سبيل هذه البنت المسكينة. إن العدالة تعمل لدى أكثر مما تعمل الأمومة، وكيف لا يفعل المرء من أجل ابنته ما يفعل من أَجل عشيقته؟".

وكانت الأم على حق، إلا أن هوجو الغارق في عمله تأملاته لم تكن لديه بقية من الوقت يتاح له فيها أن يفكر في آلام أسرته، إذ كان كل وقته ونشاطه الفياض في الفترة ما بين عامي ١٨٥٦، ١٨٥٩ موزعين بين مؤلفاته، وعشيقته جولييت، وتهيئة جو فني يرضي مزاجه بمنزل "المدينة العالية" الذي صار ملكًا له.

وكان هوجو يحب أفراد أسرته ولكنه كان قاسيًا في معاملتهم، فما إن حل عام ١٨٥٨ حتى كانت روح التمرد قد استولت على نفوس المنفيين. وفي يناير من ذلك العام، رحلت آديل مع ابنتها "آديل الصغيرة" إلى باريس لتقضي بها مدة شهرين امتدت إلى أربعة. إن آديل كانت تكتب إلى زوجها في عصبية:

"إنني أحبك بالطبع يا صديقي العزيز، وأنا ملك لك ولا أريد أن تتألم، ولكن فلنحاول أن نتفاهم بصراحة:

"لقد اخترت جزيرة جرزيه مكانًا لإقامتك فذهبت معك إلى هناك. وحينما أصبحت الإقامة مستحيلة في جزيرة جرزيه جئت إلى جيرنيزي دون أن تسألني عما إذا كان ذلك يروق لي، ولكنني جئت معك. وبعد ذلك اشتريت منزلك ولم تستشرني في هذه المسألة، ومع هذا تبعتك إلى هذا المنزل.. وهكذا ترى إنني خاضعة لك، ولكني في الوقت نفسه لا أستطيع أن أكون عبدة تمامًا..".

وعادت آديل وابنتها في شهر مايو لأن هوجو مرض لأول مرة في حياته، ولمدة أسابيع ظل ملازمًا للفراش في حالة خطرة. وكانت جولييت طبقًا للتقاليد الأخلاقية السائدة في منزل المدينة العالية لا تستطيع أن تزوره، فكتبت إليه تقول: "آه يا عزيزي المسكين.. كم أود أن أكون خادمة عندك في هذا الوقت الذي تحتاج فيه إلى إنسان يقوم لك بالخدمات الصغيرة التي لاشك أنك في أمس الحاجة إليها".

واستمر جو الحزن والكآبة يخيم على هؤلاء المنفيين طيلة البقية الباقية من عام ١٨٥٨، وليس أدل على ذلك مما كتبه فرانسوا فيكتور إلى أحد أصدقائه. كتب فرانسوا إلى صديقه يقول: "إنك لا تستطيع أن تتصور مدى الحزن الذي يخيم على منزل المدينة العالية. إنني أخشى أن تتفكك هذه المجموعة الصغيرة نهائيًا في هذه المرة، وعلى أية حال فإننا نمر في المرحلة المظلمة من المنفى وليست أرى فيما يلوح لي نهاية النفق..".

أما أوجيست فاكيري فرحل إلى فيلليكييه بعد أن أصبح لا يطيق العيش في الجزيرة، وفي ٩ مايو عام ١٨٥٩ رحلت آديل وابنتها يصحبهما شارل هوجو إلى انجلترا..

ولكن هذه الشكاوى وأمثالها، لم تكن تشغل في عقل هوجو مكانًا كبيرًا. إن ما يهمه ويشغل باله هو إنتاجه الأدبي، وبصفة خاصة "أسطورة القرون" التي كانت قد نشرت في باريس واحدثت هناك دويًا هائلًا. إن هوجو في عام ١٨٦٠ أديب تغلي نفسه- بعيدًا عن كل هذه المشاكل- بالأفكار والمشروعات، وها هو ذا يطلق لحيته بعد مرض عضال أصاب حنجرته، ويأخذ شكل الجد الشيخ الذي سيعرف به في التاريخ. وعلى الرغم من أنه قد أصبح الآن في الحلقة السادسة من عمره، إلا أن جسمه الذي كان لا يريد أن يشيخ

أبدًا كان يعذبه ويقوده إلى رمال الشواطئ لمقابلة الفتيات وحتى إلى سرائر القش التي تنام عليها الخادمات.

وكانت آديل تعود إلى جيرنيزي لترحل عنها من جديد إلى انجلترا أو فرنسا، إنها الآن سيدة ممتلئة في حوالي الستين من عمرها تحب أن تزور أسرتها آل فوشيه، وأحيانًا تصعد سرًا إلى السلم المؤدى إلى شقة سانت بوف في شارع مونبارناس. إن سانت بوف قد أصبح بدوره رجلًا عجوزًا، ولكنه كان لا يزال يحتفظ بجاذبية كبيرة في الحديث، وقدرة على توجيه الإطراء والغزل الرقيق.. أو ليست هذه فترات لطيفة للراحة بعد هذه الحياة القاسية مع "وحش" جزيرة جيرنيزي الذي يحب السيطرة؟

إن الأسرة كلها كانت تتفكك.. إن آديل الصغيرة[١١] التي أصبحت الآن فتاة عانسًا قد انتهزت فرصة غياب والدتها في باريس، وفرت هاربة كي تتبع ملازمًا انجليزيًا يدعى البرت بنسون وكانت لها مأساة طويلة انتهت بدخولها مستشفى الأمراض العقلية. أما شارل هوجو فقد سافر إلى باريس واستقر بها دون أن يخطر والده. وفي نهاية عام ١٨٦٥، غادر باريس إلى بروكسل حيث تزوج في عام ١٨٦٥ فتاة يتيمة لطيفة في الثامنة عشرة من عمرها تدعى آليس لاهين. ولما كانت مدام هوجو قد أصبحت لا تطيق العيش في جزيرة جيرنيزي بعد هروب ابنتها، فقد ذهبت لتعيش مع ابنها شارل وزوجته. وبالنسبة لفرانسوا فيكتور، فقد أمره والده بالرحيل بعد أن خشي على عقله إثر وفاة خطيبة له كان على وشك أن يتزوجها..

وهكذا لم يبق في المنفى سوى هوجو وجولييت.. إن الأسرة قد هجرت

---

[١١] ديديه.

ربها، وكلما خلا الجو لرب الأسرة غدا ملكًا لعشيقته. وها هي ذي جولييت تكتب إليه تقول:

"إنني أطلب من السماء أن تمد في إقامتنا هنا وأن تمد في أعمارنا.."

وكان هوجو يرد عليها بقوله:

"في ٣١ ديسمبر عام ١٨٦٧: إن شمسًا جميلة تشرق الآن في آخر أيام هذه السنة التي انتهت، وغدا يصحو مستقبلنا في أول يوم من أيام العام الذي سوف يبدأ توا. لقد قضينا سبعة عشر عامًا في المنفى وأربعة وثلاثين عامًا من الحب.. أي الضعف تمامًا يا عزيزتي. وبفضل حبك أيها الملاك الحلو لم يكن هناك منفى، فقد كنت لي وطنًا وشعاعًا مضيئًا في وحدتي المظلمة..".

البؤساء

وكان هوجو منذ مدة طويلة، يعمل في رواية اجتماعية كبرى تعالج موضوع العقوبات وظلم القوانين وعدم منطقيتها، وتطالب برد الاعتبار إلى من يخرجون من السجن بعد قضاء العقوبة والتكفير عن أخطائهم. والواقع أن هذه الأفكار وأمثالها كانت تشغل تفكيره وروحه منذ أن كان يؤلف كتابه "آخر أيام محكوم عليه بالإعدام" وكانت روح العصر تشجع هذا الاتجاه، فجورج صاند، ودوماس، وفريدريك سوليبه، كانوا يؤلفون الروايات الاجتماعية التي تصف آلام الشعب، فضلًا عن أن غرائز هوجو الطبيعية كانت تجتذبه إلى الكتابة في مثل هذه الموضوعات.. وكثيرًا ما كان يردد:

كيف نحتمل الألم في هذه الدنيا؟

وكذلك الجوع والعمل الشاق والبؤس والشر..

هذه المشاكل كلها تمسكني بمخالبها

والواقع أن هذه الأبيات كانت تعبر عن مشاعر قوية ثابتة أصيلة في نفس فيكتور هوجو. لقد كان يؤمن إيمانًا مخلصًا بالفن ولكنه لم يؤمن أبدًا بالفن من أجل الفن.

والواقع أن هوجو قد كرس نفسه لكتابة "البؤساء" منذ عام ١٨٤٥ حتى عام ١٨٤٨ ثم انقطع عن الكتابة حتى عام ١٨٦٠، وفي هذا العام عاود الكتابة من جديد حتى أتم الرواية، وكتب إلى أوجيست فاكيري يقول:

"في هـذا الصـباح، وفي السـاعة الثامنـة والنصـف مـن ٣٠ يونيـو عـام ١٨٦١ فرغـت مـن كتابـة "البؤسـاء" والشـمس ترسـل أشـعتها الجميلـة مـن خلال نافذة غرفتي..".

وكانت جولييت خير سند لهوجو طيلة المدة التي استغرقتها كتابة هذه الرواية، فهي التي تقوم بنسخ مسوداتها، وكانت تتابع شخصياتها في شغف بالغ.. وقد كتبت إليه في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٥ تقول: "أعطني كل مسوداتك لأبيضـها لـك.. إنـني أود أن أعـرف مـاذا سـيحدث بعـد ذلـك للمطـران الطيب.." وفي ٣ فبراير عام ١٨٤٨ كتبت تقول:

"إنني أشعر بمدى ما يقاسيه جان تريجان[١٢] المسكين من ألم وعذاب، حتى إنني أبكي على الرغم مني على مصير هذا الشهيد المسكين. ولست أعرف ما يمكن أن يؤثر في النفس أكثر من فانتين المسكينة، ولا ما يؤلم كهذا الإنسان الخامل شانماثيو.. إني أعيش مع هؤلاء الأشخاص وأقاسمهم آلامهم كمـا لـو كـانوا أناسًـا حقيقيـين مـن دم ولحـم، لأنـك تخلقهـم بطريقـة طبيعيـة للغاية.. ولست أعرف ماذا أقول لك، ولكنني بكل ما أملك من عقل وقلب أحب هذه الرواية التي تسميها بحق رواية البؤس..".

وفي مايو من عام ١٨٦١، كانت جولييت سعيدة الحظ بمصاحبة هوجو في رحلة لمدة شهرين، أقاما خلالها في فندق "دي كلون" ببلدة "مون سان ميشيل" حيث أراد الكاتب أن يكتب الجزء الخاص بمعركة واترلو في نفس المكان الذي دارت فيه المعركة. وكانت جولييت تذهب معه إلى كل مكان

[١٢] الاسم الذي كان يطلقه هوجو في بادئ الأمر على "جان فالجان".

لتقطف له الأزهار التي يحبها، وتفحص معه الأشجار التي كانت كل شجرة منها تحمل أثرًا لرصاصة أو طعنة من طعنات السونكي. وأحيانًا كان يتركها بمفردها في الفندق ويذهب إلى بروكسل لزيارة الأسرة، فكانت تنصرف إلى "تبييض" مسودات الأجزاء التي فرغ من كتابتها، وكانت تقول له حين يعود:

"التبييض هو خير دواء لآلامي.. إنه عملي الصغير العزيز الذي أوثره على كل شيء آخر بعدك..".

وكان هوجو يعرف سلفًا أن جمهورًا كبيرًا سوف يقرأ روايته التي أنهك في كتابتها قواه زمنًا طويلًا، فأراد أن يستفيد من هذه الفرصة بأن يحصل على دخل يضمن به مستقبله المادي بصفة نهائية. وعرض على أحد الناشرين أن يدفع له في الرواية ثلاثمائة ألف من الفرنكات[١٣]، على أن يتنازل له هوجو في مقابل ذلك عن حق النشر لمدة اثني عشر عامًا، وكانت تلك هي أول مرة يتقاضى فيها هوجو مثل هذا المبلغ، وإن كان لامرتين ودوماس الأب وأوجين، قد ربحوا حتى ذلك الوقت أكثر من ذلك بكثير!

ونشرت الرواية وكتب بول موريس إلى هوجو في ٦ يوليو عام ١٨٦٥ يقول:

"إن باريس تلتهم منذ ستة أيام رواية البؤساء، وتنبئ التعليقات الأولية وبعض المقالات التي ظهرت في الصحف بأنها سوف تحرز نجاحًا ضخمًا، وهو أمر كنا نتوقعه مقدمًا، أن الناس يكادون يطيرون من الفرح! ولم تعد هناك اعتراضات سخيفة ولا تحفظات تتم عن ضيق الأفق، فهذا البناء الضخم من

---

[١٣] أي ما يعادل على الأقل ستين مليون فرنك قبل تخفيض قيمة الفرنك الفرنسي في عام ١٩٥٣.

العظمة والعدالة والرحمة النبيلة تفرض نفسها بنفسها على الجميع بطريقة حتمية..".

ومن الطريف أن ناشر الرواية قد ربح منها في الفترة ما بين عامي ١٨٦٢، ١٨٦٨ ربحًا صافيًا مقداره ٥١٧ ألفا من الفرنكات!

وأقيم في بروكسل حفل تكريم، كان المؤلف فيه ضيف الشرف.. أما سانت بوف الحذر، لم يكتب نقدًا علنيًا في الصحف خوفًا من التورط، ولكنه كتب في مذاكرته الخاصة يقول: "في الوقت الذي كان كل المؤلفين المعاصرين قد أصبحوا شيوخًا لا هم لهم إلا تدفئة عظامهم العجوزة تحت أشعة الشمس على مقاعد قصر الانفاليد، يعطي فيكتور هوجو برهانًا ساطعًا على شبابه. وكان من واجبه أن يعطى براهين أخرى كثيرة على ذلك، ولكن الوقت لا يتسع هنا لأتحدث عن "وليام شكسبير" و"عمال البحر" و"الملك يلهو"، وسأفعل ذلك في الكتاب الذي سأكتبه فيما بعد من سلسلة هذه المحاضرات".

واليوم، تعد رواية البؤساء من أبرز المؤلفات التي نالت شهرة إنسانية، ويحتل أبطالها "جان فالجان" و"ميرييل" و"جافير" و"فانتين" وأسرة "تيناردييه"، وكذلك "ماريوس" و"كوزيت" مكانهم إلى جوار أبطال الروايات العالمية الأخرى، كالأب "جرانديه" و"أوليفر تويست" و"ناتاشا روستوف" و"الأخوة كارامازوف".

وفاة آديل

لن نستطيع أن نجد ما يصور لنا حياة فيكتور هوجو فيما بين عامي ١٨٦٦، ١٨٦٩ خيرًا من شهادة "بول ستابفير"، وهو مدرس شاب للغة الفرنسية، كان يتردد على جزيرة جيرنيزي لتدريس الأدب في إحدى مدارسها، وكان ممن يتردد على بيت الشاعر..

ويذكر ستابفير أن هوجو كان دائمًا بمفرده أو جالسًا مع شقيقة زوجته "جولي فوشيه"، وكان أهالي الجزيرة يبدون اهتمامًا كبيرًا بأمر الشاعر الفرنسي الذي كانت أفكاره الجمهورية وآراؤه عن الملكة فيكتوريا تجرح مشاعرهم.

وكان ستابفير يحب طريقة هذا الشيخ النبيلة في المشي، فقد كان يسير منتصب القامة، في خطوات ثابتة مستقيمة ويرتدي قبعة لينة ذات حافة عريضة، وكان يحمل على كتفه دائمًا معطفًا كما لو أنه يتوقع أن ينهمر المطر في أية لحظة.

وكان حديثه يبدو طبيعيًا بسيطًا ويتسم بخفة روح فرنسية إذا ما تحدث مع شخص آخر على انفراد، أما إذا كان هناك مستمعون كثيرون، فتأخذ الشخصية حينئذ مكانها بدلًا من الشخص، ويصبح هذا الرجل البسيط متحدثًا بليغًا، فيهاجم المادية، ويسخر سخرية مرة من قول تين: "إن الفضيلة والرذيلة هما بدورهما منتجات كالسكر وماء النار"، فيقول في عصبية ظاهرة: "إنه إنكار يشع للفرق بين الخير والشر، ولكم أود لو كنت الآن في الأكاديمية كي أصوت مع مطران مدينة أورليان ضد هذا الإنسان!".

وكان هوجو يكره "راسين" أشد الكره ويقول عنه: "إنه إنسان غير واثق من نفسه، يكتب أحيانًا بأسلوب رديء للغاية.." وكان يعلن رأيه في كتاب عصره بلا أدنى حرج كأن يقول: "إن موسيه أقل بكثير من لامارتين" أو "ليس هناك سوى كاتب كلاسيكي واحد في قرننا هذا، هل تفهمون؟ إنه أنا.. إنني أحسن كاتب يعرف الفرنسية في هذا العصر، ويأتي بعدي سانت بوف وميريميه، ولكن ميريميه كاتب قصير النفس.. إنه قنوع كما يقال عنه. أما "تيير" فهو بواب وجد قراء من البوابين، ولدي شاتوبريان كثير من الأشياء الرائعة ولكن ليس في قلبه ذرة من حب الإنسانية.. إن له طبيعة كريهة. إنهم يتهمونني بأنني متكبر وهذا صحيح، ولكن كبريائي هي سبب قوتي..".

أما عن آديل، فيقول "ستابفير" إنها تتمتع بشخصية عظيمة تبعث على الاحترام، وكانت تبدو جميلة بثيابها الأنيقة وشعرها المصفف على شكل "بريمات" عريضة، وكانت تصحح لشقيقتها جولي بين حين وآخر بعض الأخطاء اللغوية كأن تقول:

آه! أنت تستطيعين يا جولي أن تقولي إنه ميدوك أن الصحيح هو أن تقولي: بليز ميدوك.

وقد شهد عام ١٨٦٧ حادثًا هامًا في المحيط العائلي لفيكتور هوجو: أعني ذلك التقرب بين مدام هوجو وجولييت دروويه، وكانت الأولى غائبة عن جزيرة جيرنيزي منذ عامين، فلما عادت إليها قامت بزيارة مدام دروويه لتشكرها على أنها حلت مكانها أثناء غيابها. وتأثرت جولييت تأثرًا شديدًا بأن تبدى "مدام هوجو" نحوها مثل هذا الاحترام" فبادرت برد هذه الزيارة في سرور كبير..

وانقضى بعض الوقت، ثم وجه شارل هوجو وزوجته دعوة لمدام دروويه

لقضاء فترة من الوقت في بيتهما ببروكسل، فلبت جولييت الدعوة وهي تشعر بسعادة بالغة، وكتبت إلى هوجو في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٦٧ تقول:

إن قلبي لم يعد يدري أيكما يحب.. إنني مسرورة للغاية وأشعر بحنان وسعادة أكثر مما ينبغي أن تشعر به امرأة عجوز مثلي، لقد كنت أحس بسعادة غامرة طيلة الأيام الخمسة عشر التي قضيتها في بروكسل، والتي حفلت بحب الأسرة وحنانها.. إنني أباركك وأعبدك..".

وكانت زيارة مدام هوجو لجولييت، وكذلك الدعوة التي وجهتها إليك أسرة شارل بمثابة رد اعتبار له وقع السحر في نفس هذه السيدة المسكينة التي عاشت حتى سن الواحدة الستين في حرمان طويل شاق وخاصة حينما أذن لها في أن تزور منزل المدينة العالية، وكتبت جولييت إلى هوجو في ١٢ أبريل من عام ١٨٦٨ تقول: "أريد أن أنتهز كل اللحظات والفرص التي يمنحها لي الله، إنني أشكركما واعبدكما..".

وقضت جولييت صيف عام ١٨٦٨ في بروكسل مع هوجو كما حدث في العام السابق.

في ذلك الوقت، كانت آديل تسير بخطى سريعة نحو الشيخوخة، إن عينيها أصبحتا لا تساعدانها على القراءة..

وكانت آديل قد أمضت قبل ذلك مدة طويلة في باريس لتحضر إعادة عرض مسرحية "هارناني" في عام ١٨٦٧ التي كانت الرقابة قد أذنت بعرضها أخيرًا. وكان شقيقها فيكتور فوشيه قد مات منذ وقت قريب بالسكتة القلبية، وكانت بدورها مصابة بلغط في القلب وتشعر بأنها مهددة في أية لحظة، وكثر حديثها عن نهايتها التي باتت وشيكة، ولكن تفكيرها في هذا الأمر كان يتسم

برحابة صدر كبيرة، وكانت تقول: "إن ما يحزنني فقط أنني أوشك أن أموت في اللحظة التي بدأت فيها أقدر مؤلفات زوجي الجيدة وأتذوقها. يا للأسف! إنني أموت في اللحظة التي يأتيني فيها العقل!".

وكان هوجو يعرف أنها مريضة، فكتب إليها ينصحها بألا تذهب إلى مسرح الكوميدي فرانسيز لمشاهدة الحفلة الافتتاحية لمسرحية هرناني، وذلك خوفًا عليها من الانفعال، ولكن آديل ردت عليه بخطاب مؤثر تقول فيه:

"لم يعد أمامي وقت طويل أعيشه حتى أضيع هذه الفرصة التي تعيد إلي ذكريات شبابي الجميلة.. أتطلب مني أن أتخلف عن حضور الحفل؟ كلا يا سيدي..! أولًا، لأن هرناني لن يصفروا لها في هذه المرة، وثانيًا لأنني أعرف كيف أواجه الضوضاء. حقًا إن عيني ضعيفتان للغاية، ولكنني سأتابع المسرحية حتى لو فقدت البصر تمامًا.. إنني سأذهب لمشاهدة هرناني حتى ولو اضطررت إلى أن أرهن شخصي العجوز، وإن كان أحد للأسف لن يعطيني شيئًا كبيرًا لقاء ذلك..".

والواقع أن آديل كانت شديدة الرغبة في أن تشاهد مرة ثانية هذه المسرحية التي كانت تذكرها بآخر عام سعيد في حياتها الزوجية، فلم تقتصر على حضور الحفل الافتتاحي فقط.. بل شاهدت كذلك بروفات المسرحية جميعًا. وكانت الصحف تشير إلى وجود "مدام فيكتور هوجو" في باريس، وكانت آديل إذ ذاك تقول: "يا له من اسم مشهور ذلك الذي أحمله!.." وكان الطلبة إذا شاهدوها يتجمهرون حولها، ولقد قال لها أحدهم ذات مرة: "إن فيكتور هوجو هو ديننا!".

وكان النجاح عظيمًا .. وبعثت آديل إلى زوجها تقول: "إنه حماس جنوني!

إن الناس كانوا يقبلون بعضهم بعضًا.. وقد فاقت حماسة الشباب كل حد. لقد أثبت الشباب أنه شجاع وعلى استعداد لكل شيء. إنني سعيدة.. بل إنني في السماء!".

وكتب سانت بوف إلى آديل يقول:

"سيدتي العزيزة.. إن هذه شهادة رائعة يقدمها شبابنا، وهكذا فإن لكل عبقري ساعته، وعبقرية زوجك الآن في وضح النهار. ولشد ما أشعر بالندم المر وأنا مسمر هكذا في مقعدي لأنني لم أستطع أن أشارك في هذا المهرجان الشعري ولو بزيارة إلى المسرح، كي أسمع عن قرب هذا التصفيق الحاد الجميل الذي يوقظ في أنفسنا كثيرًا من الأصداء، وذلك كي أثبت أنني متمسك بألا أفقد مكاني بين المدافعين القدماء عن مسرحية هرناني..".

وكان سانت بوف بدوره، يحس بأن شبح الموت قد بات قريبًا منه هو الآخر، ولم يعد للكراهية والخلافات مكان في القلب ولا متسع من الوقت.. وها هو ذا يرسل خطابًا إلى الشاعر شارل بودلير، الذي كان من الأصدقاء الذين يترددون على بيت هوجو، يقول فيه:

"إن حب هوجو للإنسانية موجود دائمًا في أصغر شيء يكتبه.. وكم هو لطيف منك أن تتحدث عني أحيانًا إلى مدام هوجو.. إنها الصديقة الوحيدة المثابرة التي كانت لي في هذا العالم. إن الأخريات لم يغفرن لي أبدًا إن افترقت عنهن في لحظة معينة.. إنني أجد تلاميذ الطريقة الأخيرة ثقيلي الدم للغاية، وأعتقد أنهم لم يولدوا إلا للتهريج على المدرسة التي توشك أن تنتهي(١٤)، وليطبعوها بطابع ثابت من السخرية.. ولكن هوجو يحلق فوق هذا كله في غير

(١٤) يعني "سانت بوف" بذلك المدرسة الرومانتيكية.

اهتمام. إنني مقتنع بأننا لو كنا قد تقابلنا معًا مباشرة ودون تدخل من أحد، لاستيقظت المشاعر القديمة في أليافها الدفينة، إذ لم يحدث قط إن رأيته مرة دون أن نتفاهم بعد بضع ثوان، كما كان يحدث في الزمان الماضي..".

وقام "بودلير" بإيصال هذا الخطاب إلى آديل التي أطلعت عليه زوجها، ولكن آديل وسانت بوف سرعان ما استراحا من خلافات ومصالحات هذا العالم.. ففي ٢٦ أغسطس عام ١٨٦٨، خرجت آديل مع زوجها في المركبة، وكان هوجو يبدو رقيقًا جدًا وكذلك كانت آديل مرحة للغاية. وفي اليوم التالي أصيبت آديل بأزمة قلبية فارقت على أثرها الحياة!

وكانت آديل قد كتبت إلى زوجها قبل وفاتها بشهر واحد تقول:

"حين أمسك بك، سأتعلق بك دون أن أسألك الإذن.. إنني حينئذ سأكون حلوة ولطيفة جدًا لدرجة إنك لن تجد الشجاعة لتهجرني.. إن آخر أحلامي هو أن أموت بين ذراعيك..".

وقد تحققت هذه الأمنية..

ودفنت آديل كرغبتها في فيليكييه إلى جوار ابنتها ليوبولدين. ولم يستطع هوجو أن يرافق جثمانها إلا إلى الحدود، ولكنه أمر بأن يحفر على شاهد قبرها هذه العبارة:

"آديل زوجة فيكتور هوجو"

ترى هل كان ذلك كبرياء منه؟ أو هي رغبته في أن يستعيد بعد الممات تلك المرأة التي أفلتت منه في حياتها يومًا ما ؟ أو إطراء لإخلاص الزوجة الصديقة؟ أم أنه اعتراف بجميل جولييت؟

لا أحد يعلم!

وحين عادت جولييت إلى جزيرة جيرنيزي، لم تحاول أبدًا أن تغري الرجل الأرمل بالزواج منها.. بل لقد احتفظت بذكرى آديل حتى آخر أيامها باحترام يقارب حد العبادة. وكتبت في ١٠ أكتوبر من عام ١٨٦٨ تقول:

"إنني أود من هذه الشاهدة على حياتك في الدنيا أن تفضل علي بأن تكون شاهدتي أمام الله في السماء.. إنني أطلب الإذن من الله بأن يدعني أحبك حتى آخر أيامي في هذه الدنيا، وفي الآخرة.. إنني أطلب منها كذلك أن تهبني بعض هذه الموهبة التي كانت تجعلك سعيدًا، وأتعشم أنها ستمنحها لي لأنها تعرف الآن ما يدور في أعماق قلبي..".

جنية نهر الأور

دخل القطار الذي يحمل جثة شارل هوجو باريس والاضطرابات تسود العاصمة، وكانت حكومة باريس الثورية في الحكم..

وفي محطة أورليان بباريس، كان هناك جمهور غفير ينتظر وصول فيكتور هوجو مع جثمان ابنه الميت، وما إن أنزل النعش من القطار حتى تجمع حول عربة نقل الموتى حرس شرف منكس السلاح.. وعلى طول المسافة من ميدان الباستيل حتى مقبرة بير لاشير اصطف جنود من الحرس الوطني لتحية الكاتب الكبير وابنه الميت.

وقبل إنزال النعش إلى القبر، ركع هوجو على ركبتيه كعادته، وقبل الصندوق في خشوع.. ولما انتهت مراسيم الدفن، كان الناس يحيطون به من كل جانب وقد أمسكوا بيديه مواسين في رفق، وكان لكل تلك العناية في نفس هوجو أبلغ الأثر فتمتم يقول: "كم يحبني هذا الشعب وكم أحبه!".

وكان على هوجو أن يرحل فجأة إلى بروكسل في صحبة جولييت وأرملة ابنه شارل وولديها، وقد لامه الكثيرون على ذلك ظنًا منهم أنه يؤثر الابتعاد بدلًا من أن يختار بين حكومة بوردو للجمهورية الثالثة وحكومة باريس الثورية، والواقع أن وجود هوجو في بلجيكا في هذه اللحظة كان ضرورة ملحة.. إذ أن شارل وزوجته أليس قد اعتادا أن يلعبا القمار في مدينة "سبأ"، وخسرا في ذلك مبالغ ضخمة، ومن ثم فكان يجب تسديد هذه الديون..

ومن بروكسل، كان هوجو يتتبع الأحداث التي تجري في باريس في اهتمام

وألم، فقد كانت الحرب الأهلية تمزق البلاد.. وفي كل يوم تقريبًا، كان يبلغه نبأ موت أحد الأصدقاء أو القبض على أحد المعارف.

ونشر مقال هوجو عن حق "الالتجاء السياسي" في جريدة الاستقلال البلجيكية، وتلقي الكاتب كثيرًا من خطابات التهنئة والإعجاب، ولكن حدث في نفس الليلة أن استيقظ أثناء الليل على صوت أحجار تحطم زجاج النوافذ، وهتافات تنادي قائلة: "إلى الموت يا فيكتور هوجو! إلى المشنقة أيها المجرم..!".

كان المتظاهرون حوالي خمسين شابًا من الرعاع جاءوا بتحريض من البروسيين، وحاولوا تحطيم أبواب البيت للدخول ولكنهم لم يفلحوا، فعادوا أدراجهم وهم يسبون..

والواقع أن هذا الحادث لم يكن على جانب يذكر من الخطورة، غير أن هوجو فوجئ في اليوم التالي بمرسوم صادر من الحكومة البلجيكية يأمر: "مسيو فيكتور هوجو المشتغل بالأدب والبالغ من العمر تسعة وستين عامًا بمغادرة البلاد في الحال، ومنعه من العودة إليها في المستقبل".

والآن ما العمل؟.. إن العودة إلى فرنسا في تلك اللحظة معناها أن يعرض نفسه لأحداث عنيفة لا جدوى منها، وبعد ساعات من التفكير قرر أن يذهب إلى لوكسمبرج.

إن هوجو كان قد سبق له زيارة لوكسمبرج أربع مرات مع جولييت خلال رحلات الصيف، وكان قد توقف أربع مرات في مدينة فياندن الصغيرة، حيث عرفه أهل البلدة، وازدحموا تحت نافذة بيته هاتفين بحياته، فلم لا يذهب ليعيش هناك في سلام؟

ورحل هوجو إلى لوكسمبرج، وكان في انتظاره على رصيف المحطة جمهور

غفير استقبله أروع استقبال. وكان هناك كثير من النساء الجميلات جئن يشاهدن الكاتب الرومانتيكي الشهير، ويصفقن له في حماس.

وفي بلدة فياندن، استأجر هوجو منزلين أحدهما لنفسه وهو بيت قديم مزخرف يطل على نهر الأور، والآخر لأسرته، ويقع أمام البيت الأول. وما إن استقر هوجو في فياندن حتى عكف على قصائده ورواياته من جديد، وراح يعمل فيها بسعادة بالغة لم يكن يعكر صفوها سوى أنباء باريس التي جاءته تقول أن بول موريس قد ألقي القبض عليه، وأن أوجيست فاكيري موضوع تحت المراقبة. وأصبح من المعروف عن هوجو أنه يستقبل اللاجئين من مواطنيه، ويمد لهم يد العون.

وذات يوم، جاءه خطاب من أرملة شابة لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها تدعى ماري مرسييه تطلب منه المأوى، وكان لها حبيب يدعى موريس جارو وكان يعمل صانعًا للأقفال، وقتل رميًا بالرصاص أثناء الاضطرابات، وكانت ماري ترجو الكاتب المعروف أيضًا أن يجد لها عملًا تعيش منه وقبلت زوجة شارل أن تأخذ الفتاة خادمة عندها، واتخذها هوجو عشيقة له.

كانت ماري مرسييه فتاة خمرية اللون ذات جمال رائع، ووجه مستدير ذي شفتين ممتلئتين، وكانت بإهمالها لنفسها ودموعها وسحرها الحزين الذي يختفي تحت نقاب الحداد المصنوع من "الدانتل" ذات جاذبية خاصة بالنسبة لعاشقنا الرومانتيكي!

والواقع أن ماري قد ترددت أول الأمر في أن تمنح نفسها لحب جديد.. ولكنها في غمرة يأسها وشبابها الفائر، لم تلبث أن استسلمت لجاذبية الكاتب الشهير، ولباقته الأسرة، وفي ذلك تقول: "لقد كانت لمسيو هوجو طريقة خاصة

لا يسع المرء معها إلا أن يقع في حبه".

وكان هوجو يحدثها عن الأزهار والحب والخلود، مثلما كان يفعل في الماضي مع جولييت، وكانت ماري من ناحيتها تحب هوجو حبًا جمًا، وتسبح أمامه عارية في مياه نهر "الأور" الصافية كي تبعث في نفسه السرور، وكانت أمنيتها أن تلد له طفلًا جميلًا.

وكان "الشيخ الشاب" يصحبها في نزهات طويلة يتسلق فيها الجبال والتلال المجاورة في شغف ونشاط يحسده عليهما الفتيان، ثم يعود من نزهات الغرام فيعتكف وحده في غرفة مكتبه ليكتب: "السنة الرهيبة"، وقصائد لديوانه "أسطورة القرون" الجديدة.

وكانت ذكريات ماري مرسييه الدامية وقصصها الحزينة التي كانت ترويها للكاتب، توحي إليه بأشعار رائعة كئيبة يتحدث فيها عن فتيات شابات يقابلن الموت في احتقار متعال.

وليس هناك شك في أن علاقته بماري مرسييه، نشطت روحه إلى درجة عجيبة، حتى أنه استغرق في عمل متصل طيلة شهرين كتب خلالهما مجموعة من أروع أشعاره. وكان هوجو يكتب مذكراته عن ماري باللغة الأسبانية كي يجنبها غيرة جولييت وفضولها، وأخيرًا أعطى الأرملة الشابة مبلغًا من المال وأشار عليها بالذهاب إلى "ألتويز" حيث فتحت هناك محلًا لبيع القبعات.

وفي سبتمبر من عام ١٨٧١، تلقى هوجو برقية من صديقه بول موريس يخطره فيها بأنه قد استأجر له مسكنًا بشارع لاروشفوكو لمدة عام، وكان هوجو قد علم قبل ذلك بأن كاتبًا يدعى اكزافييه دى مونتبان قد قدم طلبًا إلى "جمعية الكتاب المسرحيين" يطالب فيه بفصله من الجمعية، فقرر العودة إلى باريس

وأرسل إلى موريس يخطره بهذا القرار.

ووصل هوجو إلى باريس في أكتوبر، فبدأ له عام ١٨٧١- ١٨٧٢ إلى حد ما كئيبًا كالحًا، وأحزنه أن يرى جميع المنازل التي عاش فيها من قبل قد تحولت إلى كومة من الأنقاض. ومع ذلك، كان هوجو يصر على أن يذهب لزيارتها في صحبة جولييت.

ولم يكن هناك شيء يستطيع أن ينتزع الكاتب من أحزانه غير العمل والنساء. إن الحسان كن لا يزلن يلعبن دورًا كبيرًا في حياته على الرغم من بلوغه السبعين من عمره!

وفي يناير من نفس العام، تقرر إعادة عرض مسرحيته "روى بلاس" من جديد على مسرح أوديون، فكان ذلك سببًا في أن يصبح الكاتب مرة أخرى قريبًا من الممثلات. يالتصاريف الأقدار! إن الدور الذي كانت آديل قد فوتت على جولييت دروويه فرصة القيام به منذ خمسة وثلاثين عامًا هو الآن من نصيب سارة برنار، الممثلة الناعمة ذات الصوت الذهبي والعينيين الواسعتين.

كانت سارة تبدو أثناء البروفات كطفلة مدللة، وكان لا يروق لها أن تستمع إلى الملاحظات الكثيرة التي كان يبديها "الأستاذ العجوز" أثناء التمثيل. ولكن هذا الأستاذ الذي كبح جماح عشرات من الممثلات غيرها جعلها تسير كما يشاء، ولكنها ما لبثت أن استلطفت هذا "الوحش" العجيب، وكتبت في مذكراتها تقول: "..كان الوحش لطيفًا خفيف الظل ورقيقًا للغاية وخاصة مع النساء.. إن رقته التي أبداها، كانت لي بمثابة الإطراء لا التعالي والغرور، وهو إنسان طيب مع المتواضعين. حقًا إنه لم يكن نموذجًا للأناقة، ولكنه كان جذابًا حلو الحديث حتى أن المرء ليفطن لأول وهلة إلى أنه عضو سابق في مجلس

الإشراف. ولما كان يريد أن ينهر أحد الممثلين فإنه كان يزجره بالشعر... وكنت أجلس ذات مرة أثناء البروفة على إحدى المناضد وأنا أهز ساقي، وفجأة رأيته يقف وسط الفرقة الموسيقية ويصيح في قائلًا:

إن ملكة أسبانيا المحترمة الشريفة لا تجلس هكذا بهذه الطريقة!"

وفي ٢٠ فبراير عام ١٨٧٢، دون هوجو في مذكراته هذه الملاحظة: "صالة المسرح ممتلئة عن آخرها. وكانت سارة برنار رائعة، وقد هنأتها.." كما دون في ٢٨ مارس من نفس العام: "لقد ذهبت إلى مسرح أوديون ورأيت الآنسة سارة برنار في غرفتها الخاصة، وكانت ترتدي ملابس التمثيل..".

وفي حفل عشاء أقيم في مطعم بريبان بمناسبة نجاح مسرحيته، كان الكاتب الكبير محاطًا بعدد من النساء الحسان من بينهم سارة برنار التي قالت له في صوت يفيض رقة وأنوثة: "هيا قبلنا جميعًا.. وأبدأ بي أنا!". فلما فرغ هوجو من تقبيل الحاضرات جميعًا، أضافت سارة تقول: "والآن، فلتختم بي أنا!".

هذا، وقد سجل هوجو في مذاكرته فقرات يفهم منها أن سارة قد زارته أكثر من مرة، ترى أكانت سارة ترغب في نفس الشيء الذي كانت تتمناه الأرملة الشابة ماري مرسييه؟ لقد كتبت بعد ذلك في مذكراتها: "تأجل السفر، والسبب الحقيقي في ذلك هو خوفي من أن أسبب إزعاجًا لفيكتور هوجو.. إنني مريضة وعصبية وثائرة بسبب أنانية الناس وغبائهم، وسوف أبذل غدًا آخر محاولة..".

مغامرة جديدة

وكان هناك عدد كبير من الممثلات والأديبات الناشئات وسيدات الصالونات، يعرضن أنفسهن على الكاتب الشيخ الذي كان يتدفق شبابًا وحيوية. وكان العاشق الرومانتيكي لا تثني منهن واحدة ما دام الجمال من صفاتها

أما ملكة الساعة، فكانت "جوديت جوتييه"[١٥]، وهي حسناء ذات جمال رائع وفتنة طاغية، تملك ثروة من الشعر الفاحم والرموش الطويلة..

وكانت جوديت شابة في الثانية والعشرين من عمرها، رشيقة القوام، واسعة العينين، وردية البشرة، يمتزج في نظراتها السحر بالخمول المثير. وكان هوجو يعرف جوديت ويغازلها منذ أن كان في بروكسل حيث كانت مع زوجها "كاتول مانديس". وفي عام ١٨٧٢، التقيا في باريس من جديد فحدثته جوديت كثيرًا عن والدها الذي كان يعاني مرضًا خطيرًا في القلب، وكان مضطرًا مع ذلك إلى مواصلة الكتابة في سبيل العيش.

وعرض هوجو مخلصًا أن يأخذ الوالد المريض معه إلى جزيرة جيرنيزي، ولكنه حين علم أن هناك خطورة على حياته من السفر، لم يهدأ حتى حصل له على معاش.

وفي ١٢ يوليو عام ١٨٧٢ كتب هوجو لجوديت هذه القصيدة:

"إن الموت والجمال شيئان عميقان"

---

[١٥] ابنة الكاتب الناقد تيوفيل جوتييه المعروف باسم "تيو الطيب".

"وفيهما من الظلال وزرقة السماء الكثير"

"إنهما شقيقان في العنف وفي الخصوبة"

"وفيهما نفس اللغز ونفس السر.."

"آه! يا جوديت!.. إن مصيرينا قريبان جدًا الواحد من الآخر"

"حتى إن الناس حين يرون وجهي ووجهك"

"يعتقدون أن الهوة الإلهية كلها موجودة في عينيك"

"إنني أشعر في روحي بهوة كلها نجوم"

"ونحن قريبان يا سيدتي من السماء"

"لأنك جميلة وأنا عجوز.."

كان هوجو في ذلك الوقت في السبعين من عمره، وكانت جوديت كما قلنا في الثانية والعشرين، ولكنها كانت له.. أنها وعدت بأن تهب له نفسها في رقة، وهي تذكره ببيت من إحدى قصائده في مسرحية روى بلاس: "أيها الأستاذ.. إن رجلًا هناك في الظل تحت قدميك.. إنه ينتظر!".

وأخيرًا كتبت إليه تقول: "لقد فكرت. إنني مصممة وشكرًا.. جوديت..".

وكانت غزوة مليئة بالنشوة، حتى أن هوجو تمنى لو أنها رحلت معه إلى "منزل المدينة العالية"، فقد كان يفكر جديًا في العودة إلى جيرنيزي ويحن إليها. وكانت جولييت من ناحيتها تلح عليه في ذلك بدافع من غيرتها وعشقها للهواء الطلق، وكثيرًا ما كانت تقول له: "آه! جيرنيزي.. يا لها من جزيرة جميلة.. "وكان هوجو نفسه يحن إلى ذلك:

"بما أنني أصبحت غريبًا وسط المدينة.."

"وبما أنني أهذى إلى هذه الدرجة لما أفكر.."

"فلا نصر هناك غير نصر الحب.."

الواقع أن هوجو كان لا يجد لنفسه في ذلك الوقت مكانا من حوله ليجعل الرحيل أمرا مرغوبا فيه. وما أن يحل شهر أغسطس عام ١٨٧٢ حتى أصبح هوجو يتمنى أن يعود إلى المنفى "ذلك المنقذ الأمين"!

وفي اليوم السابع من نفس الشهر، كان هوجو مرة أخرى في طريقه إلى جزيرة جيرنيزي.

نحن الآن من جديد في "منزل المدينة العالية " وأمامنا الأمواج العالية والمناظر المكشوفة التي يغمرها الضوء.. وها هي ذي جولييت مرة أخرى تقف كل صباح، على عادتها فيما مضى، لتترقب الإشارة المألوفة، وتحس بالسعادة إذ ترى حبيبها يسير في عمله بخطوات واسعة، ويكتب القصائد لأسطورة القرون الجديدة، ويمضي قدما في تأليف رواية من أجمل رواياته "ثلاثة وتسعون".

وكان يشيع في أرجاء المنزل، في أول الأمر، جو المرح والوئام، بفضل وجود أليس وولديها حفيدي الكاتب الشيخ، ولكن الأرملة الشابة كانت لا تطيق العيش تحت سيطرة جولييت، هذه العجوز التي يحبها والد زوجها. وكانت جولييت بدورها تبادلها نفس الشعور، فقررت أليس بعد شهر واحد أن تعود مع جورج وجان إلى باريس. وكتبت جولييت إلى هوجو تقول: "أن الألم يعصر قلبي كلما فكرت فيما سيثيره في نفسك رحيلهما من حزن، إذ أنني أشعر على الرغم من حبي لك بأن هذا الحب لا يستطيع أن يمنعك من أن تكون أشقى الآباء جميعا في هذه اللحظة..".

وفي أول أكتوبر ركبت أليس الباخرة مع ابنها جورج وابنتها جان، وسافر معهم أيضًا فرانسوا فيكتور الذي كان مريضا بالسل.. وكتب هوجو في مذكراته يقول: "لقد ركبوا العربة.. وبينما كنت أقبل جان، قالت لي وقد ارتسمت علامات الدهشة على محياها: لماذا لا تركب معنا يا جدي؟ لقد رحلت العربة.. وهأنذا أشيعها ببصري حتى ناصية الشارع .. لقد اختفى كل شيء.. أنه تمزق عميق!".

وفى ١٥ أكتوبر يقول: "تأتني أية أنباء من صغاري! وان عدم رؤيتي لهم سيختزل حياتي، وليس في ذلك ضرر كبير..".

وكتب في ٢١ نوفمبر:

"أبدأ اليوم في كتابة "ثلاثة وتسعين" وعندي في غرفتي صورة شارل وصورتي جورج جان. وقد أخذت محبرة البلور التي اشتريتها من باريس، وفتحت زجاجة جديدة من الحبر ورزمة من الورق الفاخر اشتريتها خصيصا لهذا الكتاب وريشة جديدة وبدأت في كتابة أول صفحة..".

وفي ١٦ ديسمبر: "سأكتب ابتداء من الآن دون توقف وبلا مسودات أن شاء الله..".

وكانت الكتابة بلا مسودة هي طريقته أيام "أحدب نوتردام" وقت أن كان في الثلاثين من عمره.. والآن، ها هو ذا في السبعين ولكنه لا يقل نشاطا ولا مثابرة. أن الشيخ يقف أمام منضدة الكتابة عشر ساعات كاملة لا يجلس خلالها ألا لماما، إذ كان من عادته ألا يكتب إلا واقفا وعلي مكتب عال كمقطر المدارس.

وكانت جولييت أثناء ذلك تعجب أشد الأعجاب بنشاط سيدها واستغراقه في العمل، وكانت تكرر نفس الدعاء الذي قاله من أجلها فيما مضى:

"يا إِلهي! أجعلنا نعيش معا على الدوام! لا تجعله يتخلف عن أي يوم في حياتي ولا عن أية لحظة من خلودي .. ادمجنا معا، ولتجعل مني في الحياة وفي الآخرة امرأة نافعة محبوبة: نافعة لحبيبي ومحبوبة منه. أنقذنا يا الهي، وطهر نفسينا، واجمع بيننا..".

شجرة البلوط

وكانت جولييت قد أقدمت على عمل لا ينطوي على الحذر أثناء وجودها بباريس في مارس عام ١٨٧٢، إذ استعانت بفتاة لغسل الثياب في الثانية والعشرين من عمرها تدعى الآنسة بلانش، وكانت بلانش ذات جمال من ذلك النوع الصاعق الخطير، ولم تكن إلى هذا بغير ثقافة، فقد كانت تحفظ كثيراً من الأشعار ولا سيما أشعار "مسيو فيكتور هوجو" وتجيد الكتابة والإملاء بخط جميل، ولذا كانت "مدام درروويه" التي أنهكتها أعمال السكرتارية تفكر في أن تعتمد عليها في إعادة كتابة قصائد وروايات هوجو.

وكانت بلانش فتاة عاقلة ذات صفاء خال من الميوعة، ورأتها جولييت عند أصدقائها أسرة لانفان في باريس، ففكرت في أن تأخذها معها إلى "منزل المدينة العالية"، دون أن يخطر ببالها أنها تعرض بذلك سعادتها هي بنفسها للخطر!

ولدت بلانش في ١٩٤٨ من والد وأم مجهولين، فتربت عند "آل لانفان" الذين عاملوها معاملة طيبة – وها هي ذي الآن قد أصبحت فتاة نضرة ذات عينين سوداويتين، وقوام فاتن، تجمع حركاتها وإيماءاتها بين الجد والاتزان والرشاقة الآسرة.

وهكذا، وجدت هذه الفتاة نفسها ذات يوم في "منزل المدينة العالية" بمفردها مع عجوز البحر الذي بدأ يؤثر عليها بسحره "الذي لا يقاوم"! ولما كان الاعجاب طريقا إلى الحب، وبما أن مسيو هوجو تتوفر فيه صفات نادرة

هي خليط من المجد والعبقرية والحيوية العجيبة، فكيف يمكن أن تصمد معجبة يافعة كهذه أمام كل هذا الخليط من عوامل الإغراء؟

وحاول هوجو من ناحيته ألا يقع في الإغراء فترة من الوقت، ويدلنا على ذلك ما كتبه في مذكراته في ٢٧ يناير عام ١٨٧٣ليقول: آه..بلانش أنها خطر كبير، فكن على حذر أنني لا أريد بها سوءا ولا لمالكة قلبي.. ." ومع ذلك فقد كانت الفكرة تعيش في خاطره على الدوام:

"كنا نحس بأننا ننزلق على المنحدر في غموض.."

"ذلك المنحدر الذي يؤدي إلى مكان لا تعلمه.."

"يؤدي غالبا إلى النار..ولكنه يمر بالجنة"

"ولكنها كانت تفكر فيما كنت أفكر فيه.."

وكان هوجو يناديها باسم "ألبا" ويكتب من أجلها أجمل القصائد.. والواقع أن بلانش قد دافعت عن نفسها في بطولة على الرغم من عجابها الشديد بعجوز البحر العبقري، وقد دون هوجو في مذكراته هذه الفقرة التي تخول لنا أن نستنتج مثل هذا الاستنتاج: "لم تسمح لي إلى الآن لأن أرى سوى جزء من كتفها.. ."، ولكن الفتاة المسكينة استسلمت آخر الآمر، وأعطت نفسها للأستاذ بعد شهور من المقاومة.

لقد منحته نفس السعادة التي كانت تمنحها إياه جولييت من قبل، وكان يقول ذلك للفتاة، كما كان يقوله لكل من عرفهن من النساء اللاتي أبدين نحوه بعض المقاومة!

ولم يكتب الأديب الشيخ في حياته قصائد ملتهبة ،كما كتب في هذه الفترة من حياته.. أن انتصاراته الغرامية دائما تشحذ قواه، وتخلق في نفسه مزيدا من

القدرة على الابتكار. والان، ها هي ذي النزهات الجميلة التي يقوم بها في رفقة بلانش بين حقول جيرنيزي تعيد إلى القمح نضجه وجماله!

ومن سوء حظ هوجو أن جولييت، وهي تتميز بحاسة قوية في الشم "رائحة" الكوارث، ما لبثت أن أدركت ما يدور في "منزل المدينة العالية"، على الرغم من أنه كان لا يزال يرسل إليها بتراتيله المعتادة: "أن فمي يقبل قدميك، وروحي تقبل روحك..".

ولكن هذه الروح التي لم تثق فيه أبدا، حاولت أن تستخلص اعترافا من الفتاة بالخيانة.. وبكت بلانش كثيرا بين يدي مدام درووية، وأكدت لها وهي تعتذر أنها مخطوبة.. فكان من الطبيعي والحالة هذه أن ترد عليها مدام درووية قائلة: "تستطيعين أذن أن تعودي إلى خطيبك!".

وكتب هوجو في مذكراته بتاريخ ١ يوليو ١٨٧٣: "ستخرج بلانش من عند جولييت، وستحل محلها "هنرييت مرفان" في ١٥ يوليو، وسترحل بلانش هذا الصباح عائدة إلى باريس عن طريق جزيرة جرزي..".

وفي نفس اليوم، كتبت إليه جولييت تقول: "أنني أجمع في انفعال حاجيات بلانش المسكينة استعدادا للرحيل، مع أن لدي من الأسباب ما يجعلني لا آسف على ذلك.. وعلى أية حال فهي نفسها تتمنى أن ترحل، ووجهها يشرق بالسرور في هذه اللحظة، وأرجو أن تجد السعادة في باريس وأنني لعلى استعداد لمعاونتها مادام ذلك لا يكون على حساب سعادتي.

وربما كانت بلانش صادقة في زعمها أنها ستتزوج في باريس، وربما كان هوجو مخلصا كذلك حين وعد جولييت وأقسم لها أنه لن يعود إلى رؤيتها من جديد، ولكن هل يبر المرء بوعده على الدوام؟

وكانت جزيرة جيرنيزي تبدو لهوجو بغير "ألبا" كئيبة موحشة، خاصة وأن الأنباء كانت تأتيه بأن حالة ابنه المريض فرانسوا فيكتور قد ساءت كثيرا. وفي الحادي والثلاثين من يوليو – أي بعد انقضاء شهر على رحيل بلانش– غادر هوجو مع جولييت جزيرة جيرنيزي عائدين إلى باريس.

وما كاد هوجو يصل إلى باريس، حتى ذهب من فوره لزياره فرانسوا فيكتور، فوجده شاحب الوجه في حال شديدة من الضعف والهزال، وكانت أليس الطيبة القلب تحيطه بعنايتها.

وأقام هوجو بشارع دي تورنيل الذي يطل على رصيف نهر السين، وذهب لرؤية بلانش بمجرد أن استقر في مقامة الجديد بالرغم من قسمه لجولييت..

وكانت جولييت المرتابة قد استعانت أثناء ذلك بوكالة المباحث الخاصة لموافاتها بأخباره، وفي ١٨ سبتمبر عام ١٨٧٣ اكتشفت خيانته، فما كان منهما هذه المرة ألا أن فرت هاربة بعد أن كتبت له خطاب وداع..

وفي اليوم التالي دون هوجو في مفكرته: "كارثة خطاب جولييت.. قلق مزعج.. ليلة مزعجة..".

وأثار هرب جولييت في نفس هوجو يأسا وقلقا عظيمين، فراح يبحث عنها في كافة أرجاء العاصمة، ويرسل البرقيات إلى الأمكنة التي يحتمل أن يكون فيها، وقد جاء في مفكرته: من ٢٢ إلى ٢٤ سبتمبر، ثلاثة أيام من القلق والهواجس رأيت فيها كل أنواع العذاب، ومع ذلك فيجب على أن احتفظ بمظهري الطبيعي، وبالبرود اللازم لحفظ السر.. أنني أحتمل ولكن قلبي يتحطم..

وهدأت ثائرته بعض الشيء، حين علم أن جولييت شوهدت في بروكسل، فصاح متهللا: "حسنا! أن هذا يمكن أن يلقى بصيصا من الضوء..".

واستطاعوا أخيرا أن يعثروا على مكانها، وقبلت أن تعود إلى باريس. وسجل هوجو في مفكرته بتاريخ ٢٦ سبتمبر: "لن أحضر البروفة النهائية لمسرحية ماري تيودور لئلا أتخلف عن استقبال جولييت بالقطار الذي يصل في التاسعة وخمس دقائق.. ذهبت إلى المحطة قبل الموعد بخمسة وأربعين دقيقة، ولم أكن قد تناولت أي طعام فاشتريت رغيفا وأكلت نصفة.. وصل القطار في الموعد المحدد، ومرة أخرى رأى كل منا الآخر، وكانت سعادتي برؤيتها لا يعادلها إلا ماكنت أشعر به من يأس.." .

والواقع أن حب هوجو لجولييت كان يختلط بحنان دفين، والدليل على ذلك أنه حينما أعتقد أنه قد فقدها إلى الأبد، كتب في مفكرته يقول: "أن روحي قد ذهبت"، ولكن جولييت من جانبها لم تكن تستطيع أن تتصور مقدار ما وضعته الطبيعة في الشيخ العجوز من قوة عجيبة كانت تجعله شابا في الوقت الذى كانت ترى فيه نفسها تذوى وتذبل. وكانت قد كتبت تقول له في خطاب الوداع: "كل ما أعرفه أنني لن استطيع أن أقاوم هذا الصراع الذي يتجدد على الدوام: صراع حبي العجوز ضد هذه الإغراءات الشابة التي تعرض نفسها عليك.. ولست أريد أن أنغص عليك حظك الطيب، ولكنني لا استطيع أن أمنع نفسي من أن أشعر بأن هذا الحب الشائخ ضئيل أمام كل أولئك الفتيات اللاتي يناديك كما ينادي الدجاج الديك، في الوقت الذي تنهك فيه حمامتي الرمزية المسكينة نفسها في الهديل.. ولهذا، فقد قررت أن أضع مفتاح قلبي تحت عقب بابك وأن أذهب لاهيم على وجهي.." .

ولكن القدر كان يدخر للكاتب الشيخ مفاجأة جديدة، إذ مات أبنه فرانسوا فيكتور في ٢٦ سبتمبر ١٨٧٣، فكتب في مفكرته يقول: "ها هو ذا تصدع ضخم يصيب حياتي من جديد، إذ لم يعد سوى لي جورج وجان..".

ودفن فرانسوا فيكتور بعد تشييع جثمانه في جنازة مدنية كشقيقه تشارل، وكتب "جوستاف فلوبير" إلى "جورج صاند" يصف الجنازة فقال: "يا له من جمهور هائل! ومع ذلك فلم تكن هناك أقل فوضى أو صيحة واحدة.. أن الأب هوجو المسكين كان محطما تماما، ولكنه كان يحتمل الألم في شجاعة نادرة.. حتى أنني لم استطع أن امنع نفسي من أن أقبله..".

وعلى الرغم من كل تلك الضربات المتلاحقة، فقد ظل الأديب الشيخ صامدا وشجرة البلوط العتيقة.. أنه يعمل بلا كلل، ولا يني بوجود فنه. يقول بول فاليري: "يا لها من أشعار عجيبة عملاقة تلك التي ألفها هوجو في الفترة الأخيرة من حياته! أنها أشعار لا تضارعها أشعار أخرى في ضخامتها، ودسامتها واتساقها، وعظمة إيقاعها ونغماتها".

العودة

في عام ١٨٦٩، كانت الحال في فرنسا تنبئ بقرب وقوع أحداث هامة في الحياة السياسية قد تؤدي إلى تغير أساسي في نظام الحكم.. وكان نفوذ هوجو وقتئذ في باريس قد بلغ حدا كبيرا، حتى أن البعض كانوا يظنون أن عودته خليقة بأن تؤدي إلى قلب نظام الحكم..!

وكتب هوجو في مفكرته في ٩ أغسطس عام ١٨٧٠ يقول: "سأضع توا كل مخطوطاتي في الحقائب الثلاث، استعدادا لان أودي واجبي أمام الأحداث..:.

وفي ١٨ أغسطس توجه هوجو إلى المفوضية الفرنسية في بروكسل، وقابل القائم بالأعمال وأخبره بأنه يريد أن يعود إلى فرنسا ليؤدي واجبه، ولكنه لا يعترف بالإمبراطورية. وكتب هوجو في مفكرته في اليوم التالي يقول:

"لقد عاملني الرجل في أدب كبير وما إن رآني حتى ابتدرني قائلا: أنني احب قبل كل شيء أن أحيي شاعر القرن العظيم.. ثم طلب مني أن أنتظر حتى الليل، وأخبرني بأنه سيرسل إلي جواز السفر في البيت".

وأخذت صحف بروكسل تعلن عن عودة هوجو إلى بلاده، وأطلقت عليه اسم "الأب المجند".. وكتب هوجو إلى ابنه فرانسوا فيكتور يقول:

"ولدي فيكتور.. إنني حزين لأنني لست معك هناك.

لقد بدأ كل شيء يتعقد من جديد، ونحن هنا نراقب الحال، ومستعدون للسفر على شرط ألا يقول أحد أننا عائدون لنجدة الإمبراطورية، لان هدفنا هو

الإحاطة بها، وسوف أخلص لهذا الهدف إخلاصا كبيرا. لقد أخبروني بأنهم سيلقون القبض علي لو عدت إلى باريس، ولكنني لا أعتقد ذلك.."

واستسلم الإمبراطور في ٣ سبتمبر، وفي الرابع من سبتمبر أعلن قيام الجمهورية، وفي اليوم التالي، كان هوجو واقفا أمام شباك التذاكر في محطة بروكسل، يقول لصارف التذاكر بصوت تهتز نبراته بالانفعال: "تذكرة إلى باريس..".

كان الأديب الشيخ يضع على رأسه قبعه من الجوخ، وكان كيس نقوده معلقا في كتفه بسير من الجلد. ونظر الرجل إلى ساعته.. أنها آخر لحظة له في منفاه الطويل ثم التفت – وهو شاحب الوجه – إلى كاتب شاب من أصدقائه يدعي جول كلاريتي، وقال له:

– إنني أنتظر هذه اللحظة منذ تسعة عشر عامًا.

وركب معه في ديوانه بالقطار شارل هوجو[١٦]، وزوجته أليس، وأنطوان بروست وجول كلاريتي، وجولييت درورويه واجتاز القطار الحدود، وكان هوجو يرى من خلال نافذته تلك السهول التي لم يرها منذ تسعة عشر عاما تلمع تحت ضوء القمر. وترقرقت الدموع من عيني الشيخ ذي اللحية البيضاء الذي غادر بلاده فيما مضى، وهو لم يزل بعد في أوج الشباب..

ودخل القطار محطة الشمال بباريس في تمام التاسعة والنصف مساء، وكان هناك جمهور لا يدركه الحصر في انتظار الأديب الكبير الذي استقبل استقبالا يفوق الوصف حتى انه اضطر لان يخطب أربع مرات. وكان الناس يهتفون بحياته

(١٦) كان شارل هوجو قد فر إلى بروكسل في إبريل عام ١٨٧٠ بعد أن حكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر أخرى.

قائلين: "يعيش فيكتور هوجو!"، وكان هناك آخرون يلقون قصائد من ديوانه "العقاب" في حماس كبير وحملته الجماهير على الأعناق تريد أن تذهب به إلى قصر المحافظة، ولكن صاح قائلا:

-كلا أيها الأصدقاء! إنني لم أحضر لازعزع حكومة الجمهورية المؤقتة ولكن لأؤيدها..

ولما وصل هوجو إلى شارع "فروشو" توقف أخيرا أمام بيت صديقه بول موريس، حيث كان مقررا أن يقيم، ثم قال للجماهير:

"لقد دفعتم لي في ساعة واحدة ثمن عشرين عاما من المنفي".

في شارع كليشي

في إبريل من عام ١٨٧٤، أقامت الأسرة في رقم ٢١ شارع "كليشي"، وكان هوجو قد استأجر في هذا الشارع بيتا من طابقين، أحدهما له ولأسرة ابنه شارل، والآخر وبه غرفة الاستقبال تقيم فيه مدام دروويه.

وكانت شقه هوجو بالدور الرابع، ولكنه كان يصعد الدرج دائما دون أن يلهث على الأطلاق، وحين آلمته أسنانه لأول مرة في حياته أدهشه كثيرا أن يحدث ذلك!

وكان هوجو في كل ليلة يستقبل اثني عشر أو أربعة عشر ضيفاً على مائدته، فقد كان دائم التشاؤم من رقم ١٣، وكان يحب أن يجمع حوله كثيرا من السيدات الجميلات. وحينما يأتي الضيوف، كان المضيف يقف ليستقبلهم واحدا واحدا في نشاط مرتديا رباط عنق من الحرير الأسود أو الأبيض تحت ياقة أنيقة منشاة، وكانت مدام دروويه تقف إلى يمينه وقد ارتدت ثوبا جميلا من القطيفة السوداء المحلى بالدانتيل، وشعرها الأبيض الجميل يتوج رأسها الرقيق..

أما قائمة الطعام فكانت لا تكاد تتغير، لأن هوجو كان يحب دائما نفس الأصناف، سمك أو حساء محار، لحم مشوي، كبدة الأوز، و"جلاس". وكان الأستاذ يتمتع بشهية عجيبة. واذا ما فرغ الضيوف من العشاء، ذهبوا للجلوس في غرفة الاستقبال ذات الأبواب المبطنة بالحرير الأحمر وعلى الرغم من أن مدام دروويه، كانت قد جعلته يقسم برأس ابنه الميت على قطع علاقته بمدموازيل بلانش، ألا أن هذا القسم لم يحترم، وظلت مواعيده معها تملأ

مفكرته.و كان حب مدام درouيه لا يزال يدور في نفس الدائرة المفرغة الأليمة: من جولييت دروويه إلى فيكتور هوجو في ١٣ يناير سنة ١٨٧٤: "تبعتك بعيني حتي ناصية الشارع، ولكنك لم تلتفت لتشير إلى إشارة صغيرة حنونا كما كنت تفعل قديما، فعلام يدل ذلك؟ أعتقد أنك تحسن صنعا لو أنك تخلصت رويدا رويدا من أولئك النسوة اللاتي يجرين وراءك ويحمن حولك كما تحوم الكلاب الجائعة..".

وكان هوجو يستقل كل يوم عربة نقل الركاب، ويذهب إلى "حديقة النباتات" كي يتمتع على حد قوله "بالوحدة بين الجمهور"، ولكنه في الحقيقة كان يذهب لمقابلة بلانش. ولكن غيرة مدام دروويه وشكوكها كانت تتجه إلى جوديت جوتييه، وكانت جولييت قد أخبرته بأنه ما دام لا يستطيع أن يكون مخلصا فيجب على الأقل أن يكون صريحا، وقد وعدها هوجو بذلك!

وكانت جولييت من ناحيتها تفضل أن تكون جوديت جوتييه هي غريمتها لا هذه الفتاة المتواضعة المجهولة "مدموازيل بلانش"، فجوديت على الأقل هي ابنة شاعر وناقد كبير، ولهذا فقد أخبرت هوجو بأنها لا تمانع في أن يراها ما دام يعتبرها ملتهمه الجميلة، ولكنها كانت تخبره في نفس الوقت بأن الرغبة في حد ذاتها خيانة. ونظرا لان هوجو كان يشعر بأن صراحته تؤلم مدام دروويه، فقد بعث إليها مواسيا بهذه الأشعار الجميلة:

أنت تغارين؟ ممن؟ وأنت تضطرين؟ لماذا؟
إنك النهار بلا ليل والحب بلا نهاية
أتخشين البهجة التي سرعان ما تزول
بهجة الأزهار التي تولد في الصباح الهارب
والتي لا تعطر البراري إلا لحظة واحدة؟

كــــوني هادئــــة في سمائــــك الزرقــــاء
فمــــاذا يهمــــك وأنــــك الضــــوء كلــــه
أن يتوقــــف شــــعاع لحظــــة
في مــــروره بإحــــدى الأزهــــار
أن الــــنجم في كبــــد الســــماء
لا يخشــــى الزهــــرة

إن سعادتها بهذه القصيدة كانت غامرة، ولكن ذلك لم يحل دون أن تشعر في أعماق نفسها "كأن شيئا مدببا يخترق قلبها من جهة إلى أخرى". وياليت حبها هذا على ضخامته كان يجعله سعيدا! لقد كتبت إليه جولييت تقول:

"انك تحب الغزل أيا كان نوعه حتى ولو كان عابرا، وهذا سبب تمزق قلبك بل وحياتك كلها. ومهما ألقيت بسعادتك وسعادتي في هذا البرميل الذي لا قاع له، فانهما لن تكونا إلا كنقطة في محيط هذه اللذة التي تحب أن ترتشفها بنهم عجيب..

"أنك لست سعيدا يا صديقي المسكين، وأنا لست بأحسن حالا منك.. انك تقاسي من جرحى الحي الذي يتسع على الدوام لأنك ليست لديك الشجاعة لتكويه نهائيا مرة واحدة. أنني أتألم بسبب حبي لك الذي يفوق الحد. وا أسفاه! انك مصاب بداء عضال، وكذلك أنا.." .

وفي بيت شارع كليشي، كان هوجو يستقبل بعض أصدقائه من السياسيين، أمثال لويس بلان، وجامبيتا، وكليمونصو الذي اقترح عليه في يناير من عام ١٨٧٦ أن يرشح نفسه لمجلس الشيوخ.. فانتخب عضوا في الدورة الثانية، ولكن جولييت كانت لا ترحب على عادتها باشتغاله بالسياسة، وتندم على أيام المنفى السعيدة في جزيرة جيرنيزي. وكتبت إليه جولييت تقول:

"أه! كم أود من كل قلبي أن أستبدل بقصر فرساي ومجلس شيوخه بخطبائه الـذين خلـوا مـن القلـب والـروح منـزلي الصـغير في جيرنيـزي: منـزل المدينـة العالية.."

وفي عام ١٨٧٧، استقبل هوجو في مسكنه بشارع كليشي" دون بدرو" إمبراطور البرازيل الذي عامل الأديب كما كان يتمنى أن يعامله ملوك فرنسا في الماضي.. عامله على قدم المساواة، إذ قال وهو يصافحه في حراره وود: "اطمئن، فاني خجول بعض الشيء!". ولما نادى هوجو حفيدته الصغيرة جان، وقدمها للإمبراطور بقوله: "مولاي.. أقدم لجلالتكم حفيدتي جان شارل هوجو..".

– أجابه الإمبراطور قائلا: "ليس هنا إلا صاحب جلالة واحد هو فيكتور هوجو..". وقبل الإمبراطور دعوة من الشاعر لتناول طعام العشاء في بيته مع بعض ضيوفه العاديين كزائر بسيط.

وكان هوجو يغادر منزله بشارع كليشي كل يوم بعد تناول الغداء، فيذهب تارة إلى مدموازيل بلانش، وتارة أخرى إلى ماري مرسيبه جنية نهر الأور التي لم ترق لها الحياة في مدينة فياندن، فجاءت إلى باريس تطلب العون من جديد! وكان هوجو يصطحبها للنزهة في حديقة بوت شومان، ويستقل معها ترام الاتوال الذي يوصل إلى ميدان العرش. ومن الطريف أن هوجو كتب ذات مرة بمناسبة عيد رأس السنة خطابًا إلى مدير "مجلس إدارة شركة ترام الركاب العامة" يقول فبه:

"إنني عادة أركب ترام الاتوال – ميدان العرش، وكذلك أومنيبوس الباتينول الـذي يوصـل إلى حديقـة النبـاتات، فـاسمح لي أن أرسـل إلى سـيادتكم مبلـغ

خمسمائة فرنك لتقوموا بتوزيعه على سائقي وكمسارية هذين الخطين..".

وفي يناير عام ١٨٧٧، وبعد ترمل دام ست سنوات، أخبرته أليس بعزمها على الزواج من إدوارد لوكرواه نائب مقاطعة بوش دي رون. وعاد فيكتور هوجو وجولييت من جديد إلى منزل المدينة العالية بجيرنيزي في يوليو عام ١٨٧٨.

وعلى الرغم من بلوغه السادسة والسبعين، كانت جولييت كثيرا ما تضبطه وهو يخفي في جيوبه بعض الخطابات وقت وصول البريد، وحينئذ كانت تنتابها نوبة من المزاج الأسود، فتفتش أدراج مكتبه وجيوبه وتبحث في مذاكرته الخاصة. وكانت تتوسل إليه في رسائلها أن يحترم نفسه، وفي ٢٠ أغسطس من نفس العام كتبت إليه خطابا مؤلما تقول فيه:

"إن "ركوع" روحي الأبية أمام روحك، موجه إليك كرجل عظيم لا إلى الحيوان الساقط الذي ليس أنت.. أن مجدك الذي يبهر العالم يجب أن يضيء حياتك، ويجب أن يكون غروب شمسك مقدسا ومبجلا، كم أود لو أجود بما تبقى لي في الحياة من أجل حمايتك من هذه الأخطاء التي لا تليق بجلالة سنك وعبقريتك..".

وكان هوجو يغضب من هذا الكلام ولا يعيره أي اهتمام، وكان يلقب جولييت ساخرا: "بالمدرسة"، وفي نفس الوقت كان لا ينفك يقول لها: "أنني أشعر بأن روحي ملك لروحك". ولكن جولييت كانت تظل حانقة ومصدومة معظم الوقت، وكان أقل شيء يمكن أن يدفعها إلى الشجار. وكان ينتج عن هذه مناقشات والمشاجرات حالة من التوتر العصبي، فيصيب المريض الذائع الصيت جام غضبه على من حوله من الأصدقاء والمقربين.

وذات صباح، نشبت بينهما أزمة شديدة بخصوص كيس نقود يحتوي على خمسه ألاف من الفرنكات الذهبية، عثرت عليها مدام درووية في درج بمكتبه أثناء أحدى حملاتها التفتيشية، وكان السؤال القاسي الذي وجهته إليه: "ما هي الجهة التي سيرسل إليها هذا المبلغ؟". وكثيرا ما كانت تنشب بينهما المشاجرات بسبب مذكرات تعود إلى خمس سنوات مضت!

وذات ليلة بلغها أنه كان يتنزه في شارع كونيتر، وهو شارع الحب مقابل المال، وكانت ثورة عارمة صممت بعدها درووية على ترك هذا الشيخ الذي لا يتوب، والذهاب لقضاء بقية أيامها عند ابن شقيقتها لويس كوخ، ومع ذلك استقلت معه الباخرة عائدة إلى فرنسا في ٩ نوفمبر عام ١٨٧٨!

وفي باريس استأجر هوجو منزلا صغيرا في شارع "أيلو" بالقرب من أليس وزوجها لوكروي وحفيديه جورج وجان، وأقامت معه في المنزل بالطابق الأول، ولكنها سرعان ما نقلت نفسها إلى الدور الثاني في غرفة مجاورة للفرقة التي يعمل فيها هوجو..

وكانت جولييت على الرغم من ضعف صحتها الشديد، تحب أن تقوم بدور سيدة البيت وخاصة بعد زواج أليس على الرغم مما كانت تلاقيه في ذلك من مشقة بالغة، وكان هوجو قد أذن لها بأن تفتح خطاباته التي تأتيه على شارع أيلو كي يبعث بشيء من الثقة والطمأنينة في نفس صديقته القلقة، ولكن رسائله "السرية جدا" كانت تصله عن طريق صديقه بول موريس.

والتجأت جولييت إلى لوكروي زوج أليس كي يساعدها في إقناع هوجو بأن يقطع علاقته بمدموازيل بلانش، فلجأ لوكروي إلى طريقة.. إذ قابل بلانش وأخبرها أن فيكتور هوجو قد يموت فجأة بين ذراعيها لأنه مصاب باحتقان في

المخ. والواقع أن هوجو كان قد أصيب فعلا منذ بعض الوقت باحتقان بسيط في المخ، غير أن لوكروي بالغ في ذلك وأكد لها أنها ستقتله إن لم تبتعد عنه، فثار الرعب في قلب الفتاة، ووعدت بألا تقابله بعد ذلك أبدا. وبعثت إليها جولييت مبلغا كافيا من المال، ونصحتها بأن تتزوج، كما وعدت الفتاة بأن تحصل لها على عنوان أسرة لانفان التي كانت ترفض أن ترى هذه المذنبة منذ مغامرتها في جزيرة جيرنيزي. وتزوجت الفتاة بعد ذلك بالفعل، وكتب هوجو في مفكرته بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٨٧٩ يقول: "تزوجت بلانش في يوم ٢ ديسمبر في بلفيل، وقد عرفت ذلك من خطاب الدعوة الذي وصلني".

وبعد أبعاد مدموازيل بلانش، تزاحمت الكثيرات حول الشاعر بغية أن يأخذن مكانها. وكان من بينهن جان أيسلر، ومدواموزيل اديل جالوا، ومدام دي فيتراك أرملة لوساج التي تكتب الشعر، والتي تتمنى أن ترث الأديب الشيخ ولا تطلب سوى المنضدة والفراش بدون حب. وبخصوص هذه السيدة الأخيرة كتبت جولييت لهوجو تقول:

"أإنها شاعرة، وهي تعبدك، والبقية تأتي.. أرجو يا رجلي الصغير العظيم أن تكف عن اجتذاب هذه السيدة إليك. أن من لدغه الثعبان يخاف من الحبل، والقلب الممزق يخشي الجروح الجديدة، ولما كانت جروحي لا تزال تدمي بشدة.. فإنني أتوسل إليك، مهما كانت جاذبية هذه المرأة، أن تريحني من هذا القلق الذي تسببه لي..".

الراحة الأبدية

في السادس والعشرين من فبراير ١٨٨١ بلغ هوجو الثمانين من عمره واحتفلت فرنسا بذلك احتفالًا وطنيًا!

ففي شارع أيلو حيث يسكن هوجو، أقيم قوس كبير للنصر، ودعى الشعب الباريسي للمرور من تحتله أمام الكاتب الكبير. ووقف هوجو بشرفة مسكنه بين حفيده جورج وحفيدته جان، يشاهد والدموع في عينيه ما يزيد عن ستمائة ألف من المواطنين يمرون أمامه لتحيته. وكان هوجو يقف بالشرفة كل يوم ساعات طويلة ليتقبل هذه التحية الرائعة غير مبال ببرد فبراير. وأرسلت من الأقاليم الأف من باقات الزهور للمشاركة في الاحتفال بالشاعر العظيم، وكان جول فيري رئيس مجلس الوزراء قد زاره في بيته في اليوم السابق، لتهنئته بهذه المناسبة تهنئة رسمية، كما صدر قرار بإعفاء جميع تلاميذ المدارس وطلبة المعاهد من العقوبات المدرسية الموقعة عليهم تكريما لهذه المناسبة.

وحينما دخل هوجو إلى قاعة مجلس الشيوخ في الأسبوع التالي، وقف جميع الأعضاء ودوت أكفهم بالتصفيق. وفي شهر يوليو من نفس العام، أطلق اسم هوجو على الشارع الذي يقيم فيه.

واستمرت هذه الاحتفالات أياما متتالية بصورة لم يسبق لها نظير من قبل!

في سبتمبر من عام ١٨٨٢، سافرت جولييت مع فيكتور هوجو إلى بلدة "فولى لي روز" بإقليم نورماندي لزيارة صديقهما بول موريس، وما إن عادا إلى

باريس حتى أحست جولييت بألم مروع اضطرها إلى ملازمة الفراش، وقرر الطبيب أنها مصابة بسرطان في المعدة.

وسرعان ما هدت آلام المرض الخبيث قوى المرأة المسكينة، فلم يعد يتبقى من جمالها ألا حنان العينين وحلاوة الفم..

وكانت جولييت تجلس إلى جوار نافذة غرفتها، كما سمحت لها حالتها بذلك لتراقب في الجهة الأخرى من الشارع حديقة دير هادئة، كانت تذكرها بطفولتها.. فكانت تبدو على محياها المتألم حينئذ علامات الشرود العميق..

ولما أدركت جولييت أن النهاية أصبحت محتومة، أبدت رغبتها في أن تدفن مع ابنتها كلير، والواقع أنها كانت تتمنى أن يقام لها ولابنتها قبران توأمان، ولكن هوجو لم يعن بتحقيق ذلك، وكانت قد كتبت إليه يومئذ تقول:

"على الرغم من أن ذلك قد لا يروق لك، أرجو أن تسمح لي بأن أحققه ذات يوم دون أن أكون سببا في تغيير شيء من عاداتك أو من عادات أسرتك.. وأمل ألا ترفض ذلك، وأن توافق عليه في الحال لأنني أشعر بأن الوقت قد بات ضيقا".

وها هي ذي الآن تعود إلى هذه المسألة، وتطلب منه كذلك أن يبحث معها أي الأبيات ستنقش على قبرها "حينما لا تكون موجودة في هذا العالم..".

وذهبت جولييت مع هوجو إلى "سان مانديه" لزيارة قبر ابنتها كلير زيارة أخيرة، وانتهز هوجو هذه الفرصة فقام بزيارة ابنته أديل في مستشفى الأمراض العقلية، وفي اليوم التالي تلقى هوجو من جولييت هذه الرسالة المؤثرة:

"عزيزي المحبوب.. أشكرك لأنك جئت معي أمس إلى سان مانديه. لقد كانت زيارة جميلة على الرغم مما اختلط بها من مشاعر حزينة، إذ أحسست أنا

أمام قبر ابنتي بأن ندمي أقل مرارة. وآمل أن يكون كل منا قد عاد من حجه التقي، وهو يشعر بأن قلبه أن لم يكن عامرا بالسلوى والعزاء – وهو أمر لم يعد ممكنا في هذه الدنيا – فعلى الأقل خاضعا لإرادة الله..".

وفي الثاني والعشرين من نوفمبر عام ١٨٨٢، قرر إميل بيران مدير المسرح الفرنسي إعادة عرض مسرحية "الملك يلهو" التي كانت الظروف السياسية قد حالت دون عرضها في مثل هذا اليوم من عام ١٨٣٢ وفي ليلة الافتتاح، جلس جول جريفي رئيس الجمهورية في مقصورته الرسمية، بينما جلست مدام درroويه مع المؤلف الكبير في المقصورة الخاصة بمدير المسرح، وكادت سعادة جولييت بهذا التكريم تنسيها ما كانت تعانيه من الأم.

والآن، لم يعد عليها ألا أن تعود إلى بيتها لتواجه الموت.. وكانت جولييت على الرغم من إدراكها لخطورة حالتها لا تتحدث عن هذا الموت إلا نادرا، وذلك احتراما منها لرغبة صديقها الذي كان يرى مثل جوته أن "على المرء أن يغسل نفسه من أحزانه"، وأن يدع الكآبة جانبا قبل أن يأتي للجلوس معه.

وأثناء دعوات العشاء في بيته بشارع أيلو، كانت جولييت – وقد أصبحت هزيلة – تصر على ألا يهتم أحد على المائدة. وحين كان هوجو يرفع رأسه ليشرب نخب صحنها، وهو يقول أنه كان سعيد الحظ بأن قابلها منذ خمسين عاما، كانت جولييت بدورها ترفع كأسها الذي كان فارغا على الدوام، وكان الشاعر يقطع حديثه مع ضيوفه بين حين وآخر ليلتفت إليها وهو يقول:

– أنك لا تأكلين شيئا يا مدام درووية!

فكانت ترد قائلة:

– شكرا يا سيدي، فلست أستطيع أن آكل!

ومع ذلك، فقد كانت جولييت تنهض من فراشها في أي ساعة من الليل، اذا ما سمعت أقل سعال صادر من غرفة صديقها لتعد له شرابًا ساخنًا.

وفي أول يناير عام ١٨٨٣، كتبت إليه آخر خطاب لها فقالت:

"أيها العزيز المعبود.. لست أدري أين يمكن أن أكون في مثل هذا اليوم من العالم القادم، ولكنني سعيدة وفخورة بأن أوقع لك على وثيقة حياتي بكلمة واحدة: أحبك.. جولييت".

وفي نفس اليوم، رد عليها هوجو قائلا في خطابه الأخير: "حين أقول لك: ليباركك الله، فإنها السماء.. وإذا قلت لك: نامي نوما هادئا، فهي الأرض. ولما أقول لك: أحبك، فهو أنا.." .

وكانت جولييت لا تستطيع أن تتناول أي طعام، وكان هوجو يأتي كل ساعة ليقضي ساعة إلى جوار فراشها، فتنصت في خشوع إلى حديثه الذي كان يريد به أن يقنعها بأنها لا تتألم، وهي تحاول أن تبتسم. وظلت جولييت تحتفظ أمامه إلى أخر لحظة من حياتها بهذا الطابع النبيل الذي ينطوي على البطولة.

وفي الحادي عشر من مايو سنة ١٨٨٣، فارقت جولييت الحياة وهي في السابعة والسابعين من عمرها. وقام فيكتور هوجو بدفنها في مقبرة سان مانديه إلى جوار ابنتها كلير، وتحت البلاط التي اختارتها بنفسها. ولم يستطع هوجو أن يغادر المنزل ليسير في موكب الدفن بشدة حزنه. وفي مقبرة سان مانديه وقف أوجيست فاكيري يلقى خطبة الوداع التي بدأها بقوله:

"إن التي نبكيها اليوم سيدة شجاعة.." إلى أن قال: "ولها الحق في جزء من المجد لأنها تحملت جزءا من الاختبار..".

والواقع أن هذا كان هو نفس شعور هوجو.. أنه كان قد أهدى إلى جولييت في فبراير من نفس العام بمناسبة يوبيلهما الذهبي صورة له تحمل توقيعه مع هذه العبارة: "إن خمسين عاما من الحب هي أجمل زواج" أليس هذا اعترافا عادلا بجميل تلك المرأة التي عاشت حياة مضطربة، ضربت فيها مثلا رائعا للحب الذي ينطوي على تضحية تصل إلى حد الإنقاذ؟ حقا أن الرغبة كانت قد ضعفت، ولكن ارتباط هوجو بها لم يضعف أبدا.. انه بأشراكه جولييت في عمله منحها حياة لا مثيل لها، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى جولييت.. فإذا كان الناس قد تحدثوا كثيرا عن حب هوجو لنفسه أكثر مما ينبغي، فليس هناك ما يقف في صفه للدفاع عنه كحب هذه السيدة له. وكان هوجو نفسه يعرف ذلك، فقد قال بعد موتها:

سيضعون على قبري كأنه مجدي العظيم
تلك الذكرى المعبودة التي حاربها بعضهم
ذكرى حب كان خطيئة ثم أصبح فضيلة

إن جولييت دروويه لم تنظر أبدا إلى المال.. وكان هوجو قد أودع باسمها سهما من أسهم البنك الوطني البلجيكي، وكانت قيمتها وقتئذ نحو مائة وعشرون ألفا من الفرنكات¨ وكان يريد بذلك أن يؤمن حياتها في العوز ظنا منه أنه سيموت قبلها. فلما رأي هوجو أنها ميتة لا محاله، أستكتبها تحويلا برد هذه الأسهم إليه، وجاء في مفكرة جولييت بتاريخ ٨ سبتمبر ١٨٨١: "اليوم أصبح مسيو فيكتور هوجو مالكا للسبعين سهما من أسهم البنك الوطني البلجيكي التي كان قد منحها اياي فيما مضى بكرم كبير.. وهذا التحويل قد تم بمحض إرادتي أنا جولييت دروويه".

وفي مقابل هذا التحويل، أراد هوجو أن يكافئ جولييت على عدم تمسكها بالمال، فوضع باسمها في البنك عشرين ألفا من الفرنكات لتعيش منها في حالة وفاته قبلها..

وكان يتبقى عند جولييت بعد ذلك عدد من السندات والتحف واللوحات الفنية والأحجار الكريمة والأوراق الثمينة وبيت باريس، وكذلك الفضيات والمخطوطات والرسائل واللوحات الموجودة بهما تئول جميعها إلى ابن أختها "لويس كوخ"، ولكن جولييت كتبت في البند الثالث من وصيتها تقول:

"في حالة تمسك مسيو فيكتور هوجو بشراء كل التذكارات والأشياء التي ستئول إلى ورثتي الشرعيين، فإنني أريد من هؤلاء الورثة أن يوافقوا على بيع هذه الأشياء طبقا للرغبة التي يبديها هوجو..".

وكتبت في البند الرابع تقول:

"وفيما يتعلق بالقيم النقدية كالذهب والأوراق المالية التي لدي منها قدر كبير، أعلن أنها كلها ملك لميسو فيكتور هوجو الذي وضعها عندي كأمانة ويجب أن ترد إليه كامله لأنها ملك له..".

ولكن هوجو لم يشتر شيئا أو يسترد أي شيء، ولو أنه كان قد قدر له أن يفتش بين الأوراق الكثيرة المكومة في غرفة جولييت لعثر بينها على رزمة الخطابات التي كانت "ليوني دونيه" قد أرسلتها فيما مضى إلى غريمتها، ولكن ليوني لم تشغل أبدا في حياة هوجو ذلك المكان الذي شغلته هذه المحبة المتفانية ذات القلب النبيل..

ومنذ اليوم الذي ماتت فيه جولييت درووية، لبست روح فيكتور هوجو وقلبه ثياب الحداد..إنه فقد حتى الرغبة في الحياة، فذات ليلة استيقظ من نومه

في الساعة الرابعة صباحا ليخط هذه الأبيات التي نحس من خلالها أن هذا الشيخ العملاق قد أصبح كطفل عاجز ينوء بألم جسيم:

آه! يا الهــي.. كيــف أعــبر بــدونها الســنين؟

انتــزعني مــن هــذه الحيــاة.. خــذني يا إِلهــي

لا تنتظــر يومــا، ولا حــتى ســاعة واحــدة!

مـــــاذا أفعــــــل كــــــي أمــــــوت؟

الأعوام الأخيرة

في شارع فيكتور هوجو، كان الشاعر مستمرا في استقبال ضيوفه بحفاوته المعتادة، ولكن كان يبدو عليه أنه بعيد عن كل شيء.. وبدأ جسم هوجو القوي يضعف آخر الأمر، وفي أغسطس من عام ١٨٨٣ رآه الكاتب "رومان رولان" لأول مرة فوصفه بقوله:

"كان هوجو حينئذ يبدو عجوزا أبيض الشعر غائر العينين، وخيل إلي حين رأيته أنه خارج من أعماق القرون..".

وفي باريس كان الناس يرونه يسير في الشارع تحت الجليد المتساقط، مرتديا حلة بسيطة. وكان كثيرا ما يردد قوله: "لقد أصبح معطفي هو شبابي".

وأحيانا أخرى كان يقول:

"إنني عجوز وعلى وشك أن أموت.. أنني سوف أرى الله.. أري الله؟ يا للشيء العظيم! ماذا سأقول له؟ أنني أفكر كثيرا في ذلك وأحاول أن أستعد له..".

وبقى هوجو مخلصا في اعتقاده في الله، وفي خلود الروح. وفي اليوم التالي لوفاه جولييت قام بزيارة قسيس يدعي "دون بوسكو" وتحدث معه في هذه المسائل..

وكان هوجو يشعر بأن النهاية قد باتت وشيكة، ويبدو ذلك في هذين البيتين اللذين دونهما في مفكرته:

أيها الحزين.. أيها الأصم.. أيها العجوز

أيهـــــــــــــا الصـــــــــــــامت..

هيـــــــا اقفـــــــــل عينيـــــــــك..

وافتحهمـــــــا نحـــــــو الســـــــماء..

وقبل وفاته ببضعة أيام، ذهب هوجو لتناول طعام العشاء في مطعم "الأسد الذهبي" مع بعض أصدقائه من "الجمعية الأدبية"، وكان صامتا طيلة الوقت، تبدو على وجهه أمارات الشرود..

وذات مرة، التفت هوجو فجأة نحو حفيده جورج ثم قال:

"الحب.. ابحث عن الحب، وامنح السرور لغيرك وخذ السرور منه بالحب، وبقدر ما تستطيع..".

وظل هوجو حتى أخريات أيامه يتمتع بحيوية جنسية عجيبة، ولكنه كان يدرك في هذه السن المتأخرة أن اللذة والمجد لا يردان الموت:

في الســـاعة الـــتي يمـــلأ فيهـــا اســـم الإنســـان

تـــراه يـــدفع مـــن منكبيـــه بعيـــدا عـــن هـــذه الـــدنيا

ولا ينفعـــه في شـــيء أن يجـــرى ليختبـــئ تحـــت

إذ يأتي الله في النهايـــــة ولا فائـــــدة هنـــــاك

في أن يغلـــق المـــرء علـــى نفســـه البـــاب بالأقفـــال

فهـــذا المـــوت لـــيس بالشـــيء الـــذي يمكـــن تجنبـــه

وا أســـفاه! أننـــا نمـــوت في عنـــف وبســـرعة

إذ يكفـــي أن يجمـــع الحصـــان براكبـــه

أو يســـقط علـــى المـــرء حجـــر مـــن الأحجـــار

وهــو واقــف إلى جــوار باب مــوارب في شــهر ينــاير
وســرعان مــا نــرى القســيس يــدخل مــن البــاب
بـــــــدلًا مـــــــن أن تـــــــدخل الفتـــــــاة

خاتمة المطاف

وفي الثامن من مايو عام ١٨٨٥، أصيب فيكتور هوجو باحتقان في الرئة.. وما إن ذاع النبأ في أرجاء باريس حتى احتشد حول بيته جمهور غفير على الرغم من هزيم الرعد وهطول الأمطار، وصدرت نشرة صحية عن حالته جاء بها "أن حياة الأديب الكبير قد أصبحت في خطر".

وفي الحادي والعشرين من مايو، بعث الكردينال "جيبير" مطران باريس برسالة إلى مدام لوكروي يخبرها فيها بأنه قد صلى كثيرا من أجل المريض المشهور، وأنه اذا كان فيكتور هوجو يرغب في أن يزوره القسيس فليس أحب إليه من أن يقوم بنفسه بهذا الواجب كي يقدم له العون في مثل هذا الوقت العصيب!

ورد زوج أليس على الكردينال شاكرا له هذا الاهتمام، وأخبره بأن حاله المريض لا تسمح بتلك الزيارة.. إذ أنه أصبح في غيبوبة تامة..

وفي الثاني والعشرين من مايو، أفاق فيكتور هوجو من غيبوبته، فودع صغيره جورج وحفيدته جان، ثم نظر إلى من حوله بعينين نائمتين، وخاطبهم قائلا: "أنني أرى نورا أسود"، يذكرنا ببيت من أجمل أبياته".

"هذه الشمس السوداء البشعة التي يشع منها الليل!".

وفي اليوم نفسه فارق فيكتور هوجو الحياة، وحينما فتحت وصيته تبين أنها مكتوبة بالشعر، وأنه قد أوصى للفقراء بخمسين ألفا من الفرنكات، وبأن يدفن في مقابر للفقراء!

وحينما أذيع نبأ وفاته، أوقف مجلس الشيوخ ومجلس النواب الجلسة حدادا على وفاة الشاعر العظيم، وقرر المجلسان أن يدفن جثمانه في مقبرة العظماء بعد عرضه تحت قوس النصر..

دام الحداد الرسمي بوفاة فيكتور هوجو أياما متتالية، وبلغ عدد المشيعين الذين ساروا في جنازته أكثر من مليونين من الأشخاص، ولكن أحدا لم يخطر بباله وقتئذ أن يذهب لزياره مقبرة سان مانديه! ولو قدر لإنسان أن يفعل لوقعت عيناه على قبر متواضع يقوم بين الحقول التي تحيط بها منازل الضواحي يضم رفات تلك التي اقترن اسمها باسم الكاتب العظيم في عالم الأدب.

وكانت الميتة تود من صميم قلبها أن ينقش على شاهد قبرها هذه الأبيات لحبيبها الشاعر:

حينمـــــا لا أكـــــون ســـــوى رمــــاد بارد
وحينمـا تغلـق عينـاي المتعبتـان عـن ضـوء النهـار
فاســأل نفســك: هــل ذكــراي ثابتــة في قلبــك؟
لقــــــد كــــــان للعـــــــالم فكــــــره
أمــــــــا أنا فكــــــــان لي حبـــــــــه

ولكن أحدا من أقربائها لم يهتم بتحقيق هذه الأمنية، فظل قبرها زمنا طويلا بلا اسم ولا تاريخ.. أما الآن فيستطيع زوار "مقبرة سان مانديه" أن يلمحوا بين القبور قبرا مزدوجا يلمع رخامه الأبيض وسط الزهور، وقد نقشت على شاهده الأبيات السابقة، والفضل في ذلك يرجع إلى "جمعية أصدقاء جولييت دروويه" التي تتكفل الآن بالعناية بهذا القبر الذي ترقد فيه مع ابنتها كلير.

الفهرس